دندنة على التامور

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب: دندنة على التامور**
- **المؤلف: محمد المحمد – يوسف شرقاوي**
- **نوع العمل: رسائل**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 15750 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 31- 7**
- الغلاف: همام المر
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 9 شارع محلات السلام من عمر المختار أمام مستشفى الزيتون التخصصي – الأميرية - القاهرة

  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

دندنة على التامور

رسائل

يوسف شرقاوي محمد المحمد

2019

إلى القاصّة المُبدعة، الصديقة العزيزة: نيرمين قنواتي .وإلى كلّ الخليقة .

محمد المحمد، يوسف شرقاوي

المقدّمة
وشاءَ الحنين

على رصيف الغربة، متَّكئاً إلى جذعٍ بارد، يُراقب المارّة دون أن يراهم، اجتاحته رجفةٌ لم تكن من البرد. حنا لها رأسه المُثقل، تسلّلت ابتسامةٌ من ذكرى دافئة إلى وجهه، وبقيتْ هناك، كانت آخرَ ملامحه.

وشاءَ الحنين أن نُقتَل دون أن نموت، غرباء في الوطن، غرباء في المنفى، غرباء في الحب، في الحلم، وعلى الأوراق.

البؤس، كلّ البؤس لنا نحن ضحايا الأقلام، نحن العالقون في اللامكان، حيث لا حياة تُحيينا ولا موت يقتلنا. البؤس لنا نحن مجانين هذا العالم، نحن من اخترنا توثيق حماقتنا، عثراتنا وأوجاعنا، بدل محاولة نسيانها!

هنا، في معزوفة الألم: يحدث أن ترتطم بحلمك، فقط عندما تفقد الأمل بإيجاده.

هنا، حيث لا سلطة للمسافات، ولا حدود مرسومة بين البحار والمحيطات، تحت سماءٍ واحدة، في مسرحٍ واحد، نُدان فقط بتهمة الشعور والإنسانيّة.

محمّد ويوسف، صديقان التقيا في حلمٍ مُمزَّق، عزفاه أملاً على الأوراق في صورٍ تُعيد إحياء فنّ أدب الرسائل، وبجماليّة تتخطّى حواجز الحنين والوفاء في الروح الإنسانيّة.

هنا، دندنة على التامور، في زمنٍ ما عادتْ فيه النهايات الحزينة تصدم القارئ، ستجدون أنفسكم في زمن البدايات الحزينة واللانهايات.

حين نحيا فقط، من أجل يومٍ آخر.

نيرمين قنواتي

صديقي يوسف.

بوجود كلِّ هذه المسافات التي بيننا أرى روحك هنا حائمةً في سماء الدنمارك، هذه البلد التي يغطّيها البياض في هذه الأيّام، والبردُ قارسٌ جداً هنا. هل لكَ من تائهةٍ في الأراضي الإسكندنافيّة؟

أدركني الحزنُ من كلماتك التي تشبه السيف الدمشقيّ، أهو الحبّ مجدداً يا ثائر؟ ما بكَ يا ابن أمّي؟ لم أعتدْ رميَكَ للسهامِ المُبعثَرة!

اقتلْ ورداً مرّة أخرى يا ديك الجن، اطعنها من الغيرة، ارمها بسهام الحبّ، ألبِسها كفناً من الجوى يا صديقي.

من أجل زليخة يا يوسف، طغى عرّاب القصيدة بالحزن وحزَّ قلبُ الملوَّح بالجائرة. حال لجلجامش أن يبقى هَهُنَا بيننا تحت ضوء القمر؛ من كان من رحم نيسون لا بدّ له أن يزورَ العشّاق في الليل.

جاء ليرثي لنا أنكيدو يا يوسف، ليخبرنا كيف عَبَر بحرَ الأموات، كيف كان اللقاء بأوتنابشتم، وبأنه منذ ملايين السنين حتّى الآن يغوص في البحر ليحقّق حلمه بالخلود، لكن لا تترك أحلامك بعيدةً عنك، خذها حيث تغتسل، الزمها على المائدة، على ضفافِ النهر؛ فالأفاعي كثيرةٌ والحالِمون كثرٌ أيضاً.

أنا آرجوس يا هيرميز، اقترب مني إن استطعت، لن تستطيع قتلي؛ فهي عالقةٌ في قلبي، زيوس أخرج أخوته من بطن أبيه يا صديقي.

قد طمى الحزن حتّى غاصتِ الأفئدة. ستعود لضلعك، هي خرجت منه، لا تكن كالعاطلين عن العمل، ربِّ الأمل.

محمد المحمد

٥ نيسان ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفها الجارِح المُحب، محمد المحمد.

لم تمت روما إلّا ببنات الدهر، عطرُ باريس غدا مستنقعاً من العبرات، سيزيف يقيم في ذلك البلد الذي ذكرته، ديميتريوس في ديجورٍ لا ينجلي.

كان عليّ ألّا أكتب ما أنا مقدمٌ على بصقه من قلبي، لا أقوى أن أخطّها جهاراً هكذا، هي نقمةُ راءِ اللغة بين حاءٍ وباء، شقاءٌ قاتل.

كان للسهم أن يعتلي عنقَ السماء، أيّها العزيز، ولنا أن نتجرّع مصلَه، رشفةً فأخرى: الشرُّ دنَّسَ كلَّ شيء، لطّخ الطهارة. هو إعجازُ الألم!

الشهورُ ترمي بي إلى الحتف، أعلى الجبل العالي، حيث الآجلة، ديجورٌ عديم الكحل، لا قمرَ في كبد السماء، ذاك الخريف يرتقُ قميصَ الذئب ويقدُّ لحمي!

كانت ليلةً خريفيَّةً باردة، وكانت أضواءُ نهايةِ كلِّ نفقٍ تخبو كلٌّ على حدة في نصف بسيطته المجروحة، طعنَ بي الغياب، أقحمَ مقبضَ السكّين في لقاءٍ لفظَ رصاصاتِ الحرب الأخيرة في وجهي، وكانت أمواجُ البحر تتهيّأ لحظةَ ذاك لابتلاعي. بحرٌ غريق، مرجانه وصلَ حيث السهل البعيد يمتدّ، دوني!

إنّه الهربُ من الحياة، بل الإفراطُ فيها من قلّة الموت!

نينوى تحترق كما يفعل التبغ، الحدود ترتسم وسع الأفق، تمتدّ بعدميّة سيوران.

حشرجتُ: لي فيكِ جثَّةٌ خلّفها الشقاء!

وأجهشتْ: لي فيكَ دمٌ لم يسل، ها هو يجري مثل الماء!

كانت ليلةً خريفيَّةً بالفعل، لم يأتِ ربيعٌ بعدها.

"يا راحِلاً وَجَميلُ الصّبْرِ يَتْبَعُهُ _ هَلْ من سبيلٍ إلى لُقْياكَ يَتّفِقُ؟

ما أنصَفَتْكَ جُفوني وهيَ دامِيَةٌ _ ولا وَفى لكَ قلبي وهو يحترِقُ"

ابن الفارض.

البحرُ الغريق، والرصاصةُ الوحيدة الناجية إلّا من الغياب!

من كان من رحم نيسون لا بدّ أن ينزفَ ليلاً، بيد أنّ الأمل يقرصُ حين يرضع!

لستُ سيوران، كلُّ السواد يجسرُ أن يكونَ قوسَ قزح في المآقي.

الأملُ هو الكأسُ الذي يلتهمه الفارسُ الشُّجاع وهو يبذلُ حياتَه ثمَّ يوصدُ بابَ ثغرِه بعد حين.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

٩ نيسان ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

ها قد طلعَ الفجرُ على الخليقة، لأجهرنّ لك بحجم هذا النتاج لليوم، ما نزال نحن! كم يلزمُ من الجهد حتى يظلَّ الإنسانُ إنساناً؟ إنّه لثمن باهظ يا صديقي أن يدركَ الإنسانُ كلَّ الحقيقة، يدخلُ طيّاتها دونما عودة، لا يجرؤ أن ينبسَ ببنت شفة. كلُّ هذا عملٌ شاق! أرأيتَ شخصاً يحتسي شاياً بارداً في الرابعة فجراً؟ آهٍ من الأرق أيّها العزيز! الويلُ له! كلُّ هذه المشقّة التي نبذخُ بها طيلةَ النهار تمّحي أدراج الرياح فجراً! إذا كانت النتيجةُ كلَّ هذا فما طبيعة الأنا القديمة؟ أيّ مسبِّبٍ أقدَمَ على هكذا نتاج؟

حقيقة الأمر: إنّني لا أجيد التعبير عن أفكاري. سمعتُ أصواتَ عويلٍ وصرخاتٍ منذ برهة، كلُّ هذه السخافات خيال، نخطُّ الشقاءَ كما هو.

إنّه لتضاد كبير أن يدفعَ الناسُ بؤساً ثمناً لفرحٍ ضئيل!

خلصتُ إلى درج الأضداد أخيراً، أتدحرجُ من أسفل لأعلى، عقلي يبخس كل شيء، حتّى أناي!

لئن تسرف الذات في الشرّ من أجل بلوغ الخير، لئن تزهد في السعادة لتعيش حزناً، كلُّ هذا غير مفهوم!

توفّي بالأمس زميلٌ لي بأزمة ربو! الموتُ الطبيعيّ غدا غريباً، الجميع استنكر أنّ قطعةً من نحاس لم تخترق جسدَه قبل الاختناق!

كلُّهم قالوا إنّ العمرَ خمسون أو ستون عاماً، ومنهم من اتّفق أنه بعد الأربعين بلا قيمة، ما الذي يحتاجه الإنسان حين يدخل عقدَه الرابع؟

لأضعها لك كما باح بها غسّان، لكن بعقدةٍ أخرى:

لنحذف العقدَ الأوّل تذكرةً لطفولة ضائعة، العقد الثاني تعليماً للذلّ والترّهات على المقاعد الخشبيّة، العقد الثالث يكون ركضاً بين دار نشر وأخرى بالنسبة للكاتب، قفزاً من مؤسّسة إلى غيرها لموظّف لا يلقى ذرّة طحين، هرعاً إلى المراكز الصحيّة الرخيصة، جموداً إنسانياً، بذخاً وترفاً، فقراً وشقاءً، انتفاخاً ثقافياً كاذباً للجميع، محض ادّعاءات، عصراً للضمير الميّت كي يسرِّبَ قطرةً من ماءِ شفقته المعدومة، إنّ شيئاً لم يعد يستحقّ الذكر!

الحياة فرص! ما أقلّها أيّها العزيز! ما أقلّها!

أمّا العقد الرابع فيكفي للعيش بحسرةٍ على العقود الثلاث التي فاتت، هذا كلُّ ما في الأمر! أو ينقضي بنزيف الذاكرة وتأليف الأشجان والأحزان، حزناً على قصص حبِّ الصِّبا المورّم، الذي لم يكن نضراً ذات يوم.

هل تذكر قطعةَ الجبن التي قلتُ بأنني طمحتُ إليها طفلاً؟ البقرة الضاحكة أخفتْ ثغرَها حين علمتْ أنني لم أبلغْ سقفَ أحلامي إلّا بعد مضي السنين!

مضى عقدٌ ونصف من المتوسّط الحسابي لحياتي من أجلها، ونصفٌ آخر مرَّ بينما أنتظر تسخين الشاي على ضوء شمعة حين يأتي الغياب مع زائريه، وبضع شهور من دار نشرٍ إلى أخرى، عبثاً، حبرُهم جفّ، ويبدو أنّ عقداً جديداً سيمضي هكذا!

خلصتُ البارحة إلى أمرٍ كنتُ أجهله، أنني أفهم الأفكارَ بطريقةٍ مغلوطة، الأفكار الأدبيّة خصوصاً، وأنني لستُ على دراية بالنقد فألصقُ أسماءَ الأساطير ببطن عقلي كي أكتب الطلاسم للناس! هذا ما أخبرني به كاتبٌ كوميديّ مشهور، ولا ضير فيه، إذ إنني بالفعل أفهم الأفكار الأدبيّة على نحوٍ خاطئ ولا أجيد التعبير، مثل آخر نعت استخدمته لوصف الشخص قبل سطرين.

لو نتجرّع الحبَّ ماءً ونلتهمه أرغفة خبز! لما كانتْ قطعةٌ من نحاس قادرةً على أن تسلبَ إنساناً حياتَه!

أسلفتُ لك: لا أجيد التعبير عن أفكاري، أعود إلى اليوتوبيا مرغماً، نحن التوابع.

لم نكلّ صفعَ أنفسنا، بيد أننا ولن! هل تذكر الأحجار التي اتّفق واحدٌ منّا على هدمها؟ ها هو ديميتريوس يصدح من بعيد: "نام أنكيدو ولم ينهض!" كلُّ المعاصرين يردّون إيكو: "سائرون على خطى جلجامش الخضراء!"

لا تصدّق كذبة الأربعين عاماً الصادقة أيها العزيز! إنّ كلَّ هذا ترّهات وسذاجة! لكن إن وجدتَ أحد قاطني المعمورة ينهش اللحم باحثاً عن مصل الخلود، لا تعجب!

صرت أتخوّف من إجادة التعبير يا صديقي!

بدأتْ بقعُ الضوء تتسلّل من كحل الفجر، لا قمر في كبد السماء. إنه العقد الثاني، سيّما أنّ هناك حبراً في دارٍ ما تقبل أن أمتنَّ لتنشر النتاج الأوّل، في آخر الأربعين، إن لم تكن القيامة قد قامت بعد، وإن كان جناح الفراشة قادراً على ضرب الآخر ليصنع قوس قزح. قلتُ في السابق: للعدم وجود، أيّها العزيز، للعدم وجود!

المخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

١٠ نيسان ٢٠١٨ _ ألمانيا.

صديقي يوسف.

سألتني كيف حالك في آخر رسالةٍ وصلتني منك، كم أتمنّى لو أقول أنّني بخير، لن أستطيعَ الكذبَ عليك يا أخي، أنا بعيدٌ جداً عن الفرح.

قبل يومين كنتُ في طريق العودة إلى منزلي، المسافةُ تطول بيني وبين أسباب الفرح.

الجوّ في الخارج رائعٌ جداً، على ما أظنّ إنّ الربيعَ قد عاد، حتماً إنّه الربيع، نحنُ في نيسان، ونحِنُّ في نيسان.

أتدري أنّ الخريفَ يسكنني منذ ستّة سنوات ويترنّح الدمعُ من عينيّ كالورقِ الأصفر؟

كم تمنّيت أن يقدَّ قاسيون قميصي يا يوسف.

أقرأتَ نصّي الأخير؟ كتبته عن الوداع. مرعبةٌ هذه الكلمة يا ابن أمّي. جائرةٌ في الحبّ، الحرب، الغياب، البعد، الحنين، الشوق، العتاب، العذاب، التعب، الأرَق، في كلِّ شيءٍ مؤلمة.

على ذكرِ الأرَق، أتساءل كلَّ يوم، أما رقَّ قلبُها على حالي؟

إيريس النزاع تحرِّضُ قلبي عليها كي أنساها، أينسى القلبُ أمَّه؟

تُلقي كلَّ يوم إيريس التفاحة؛ تقول لي: أنتَ الأجمل ليس في طروادة فقط، إنّما في قلوب العاشقات هنا، لا تنتظر زيوس ليرسلَ لك من جبل أيدا، اختر من الأجمل بهنّ.

لا تدري هي بأنّ هيلين -أجمل نساءِ الأرض- في قلبي قبلَ أن أراها!

سأهربُ بها إلى أبعد من طروادة ولتقوم ملحمةٌ أخرى كالإلياذة، لن آبه بهم.

ما حالُ الشاي البارد معك، والعويلُ في اللّيل، وهل ينمحي شيءٌ بعد هذا النتاج في الفجر يا صديقي؟

إن كانت هذه المشقّة طيلة النهار تنتجُ لنا الإبداعَ بكلمات، فيا طيبَ إجهاد النّفس بعملٍ غير مُستَحَب!

لستُ من العاشقين للشاي يا عزيزي، فأنا أتعاطى السمراء في كلِّ حالاتها، أمارسُ معها العشق وإن كانت باردةً كمشاعر الجائرة.

أصابني الحزنُ على زميلك يا صديقي، رحمه الله. ربّما كانت نوبةُ الربو بالنسبة له مؤلمةً كالرصاصة، كالقذيفة التي تحتوي على السمِّ بدل الدواء. قال ابن نباتة السعدي:

"ومن لم يمتْ بالسيف ماتَ بغيره

تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ."

لا تستغرب يا يوسف من كذبةِ العمر والأرقام، لم أرَ بكلماتك ما قاله غسان أيضاً أنّ الحياة ليست نصراً، الحياة مهادنةٌ مع الموت.

ابتعد عن فكرة العقود فلا تدري متى يتقدّم عقدٌ على آخر، ها أنا في الثاني منهم وقلبي في العشر الأخير يلفظ أنفاسه الأخيرة.

بالطبع أذكر قطعة الجبن؛ كانت في رسالتك لمجلس الأمن، هذا المجلس هو الجرذ الذي سرقَ القطعةَ ليقتاتَ عليها ونقع نحن فرائسَ للمصيدة، كم كانت جميلةً قطعةُ الجبن، وكم كان حقيراً المجلس!

لن أقولَ لك شيئاً عن الطلاسم يا عزيزي فهي تحتاج لفكِّ الشيفرة، ودافنشي مات ولم يسلّم اللوحة إلى جوكوندو، بعد ثلاثة قرون حتّى حظيت الموناليزا بالشهرة، وأنا منذ عرفتك علمت بأنّك ستكون رائداً بطلاسم الأدب.

لا تهتمّ يا ابن الأرض المقدسة، لن تنبتَ فلسطين إلّا الثائر، الكاتب، الشاعر، الشهيد، والجائرة.

لم تكن عشتار إلّا عاشقة يا صديقي ولم يكن جلجامش إلّا رافضاً لها وكرامتها من قتلتْ أنكيدو.

سنشربُ نخبَ الحبّ وحدنا، نمضي بقطارِ الجوى، ومن يريد ليصعد معنا، سنقفُ في كلِّ ليلة تحتَ ضوء القمر، ننتظرُ الغارقين بالحبّ، العالقين بالذكريات والتائهين بالطرقات.

سنثملُ عشقاً حتّى النزف في الكلمات والموت بالكتابة.

من أجل الذين قطّعنَ أيديهنّ وكسَّرنَ الأقلامَ ومزّقنَ الرسائلَ يا أخي، سأسخِّنُ لك الشاي على نار الشوق وأنشرُ كلماتك على المارّة وأترك لك دماءَ جسدي حبراً قبل العقد الرابع والقيامة، ليصدرَ نتاجُك الأوّل حتّى قبلَ بزوغ الشمس.

وما دام الملوَّح بقربك سيبقى للعدم وجود

يا عزيزي، سيبقى للعدم وجود.

المخلص لك: محمد المحمد.

١٤ نيسان ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

ما بك؟ لِمَ تفيض حزناً؟ أذكر أمّ تشيخوف حين كانت تفتتح رسائلها إليه بجملة واحدة كلّ مرّة: يا من يتحمّل مشقّة الحياة بصمت!

إنَّ ما قلته لذنب، حجارةُ الحياة تراقصُ لحيةَ التنّين لينفثَ نارَه على المستضعفين.

قد ماتَ من انتحبَ كي يقهقهَ الآخر، من ذبلَ كي يُزهرَ الآخر، من هرمَ كي يصغرَ الآخر، وكأنّنا بهذا الموت لا ننشد شيئاً! أين الربيع من فصول الحياة؟ نأتْهُ حقبةٌ من رصاصٍ وبَيْن؟ وَأَدَه الغياب!

إنّه لإثم أن تقطعَ الحليبَ عن طفلك الأمل. عادَ يوسُف، الذئبُ نجا بما لم يفعله، أفاقَ الخيلُ ومضى من حيث وقع، قطعَ المضمارَ حتّى النهاية وقطع الحشد حتّى وصل السماء فرساً فَرِحاً يرنّم صهيلَه ويزأر، حتّى الحوت لم يصمد، أخرجَ أسيرَه، نالَ أيّوب، رُتِقَ قلبُ يعقوب، لن يموتَ الخيل!

الويلُ للربيع أيّها العزيز، الويلُ له! إنّه ليشقّ على الإنسان هذا الذبول! أن يموتَ مرغماً مثخناً بالطعنات. العنقاء لم تكن سوى ترّهة، كلّما تفتَّحتْ تلابيبُ العقل بفهم الحياة صرختِ الأخيرة: يا للجهل!

أيمكنُ للإنسان أن يجتازَ صراعَه المرير باكياً دامياً؟ ها أنتَ تخلص إلى الأمر الذي ابتعدتَ عنه طويلاً! ما نحن إلّا قربان، أيّها العزيز، قربان فقط، نُجتَثُّ حباً في الربيع، ونُقتل براء الخريف! أيُّ وهمٍ هو هذا؟ أيُّ وهن؟ قد خبَّلتُ ذاكرتي لأبقى، لا البقاء للأقوى ولا للأصلح، البقاءُ لمن لا يتذكّر، للمُحِبّ المهشّم في نصل الحياة!

إنّني لا أعرف ما أقول، لمَ تحيد عن الفرح؟ الطريق وعرة، لا تتعب عينيك، أيّها العزيز، لا تتعبهما بالبحث عن الشوك في طيّات وردة!

أين الربيع؟ أين الربيع من فصول الحياة بعد ما قلته؟ ألفظُ عبراتي كما النَفَس الأخير، وأتساءل: هل كانت خُطاه خضراء؟ بالطبع لا، فقاسيون لا يرتق جرحاً ولا يقدُّ قميصاً، لا يعدو كونه حفنةً من تراب فوقها حفنة إلى أن لامس السماء، حتّى الغيم ودّعه، لكنّه نزف الخريف، نزف طويلاً مصلَ انتظارٍ وألم.

لا تأخذ التفّاحة، التقطْ هيرا، خُذْها، وامتطِ جوادَ طروادة، ها نحن نعلِّم سيزيفَ الصبر!

يبدو أنّ شايَ اللّيل مغشوش! كنتُ أواسيك، لكنني صرتُ مثلك! أخذتْني أحابيلُ الكلام، وقعتُ في المصيدة. مرارةٌ في حلقي تلدغني، إنّ الحياةَ تأكلُ ما علينا أكله فنغدو كشِفاه التين، تلتهمُ الصبّار المتبقّي ليسدَّ رمقَ الجوع فينا!

قطعةُ السكّر في كوب الشاي لا تجعل له طعماً حلواً، مريؤها ممتدٌّ حيث الأبد، لكنني ما زلتُ أحتسيه بارداً، ها هي الرشفة الأخيرة تُخرِس حنجرتي بحشرجة، لا

نقوى أن نعقد هدنة مع الموت ولا مع الحياة! هل نساومُ على أنفسنا؟ إنّه امتحانٌ صعب، طويلُ الأمد، مريرٌ ولاذع!

قطعة الجبن تُدهن على أرغفة الخاطئين فقط، أمّا نحن فلنا الزعترُ البرّي المغموس بالشقاء.

ما دامك هنا، للعدم وجود، يا ابن أمّي، له وجود، ولن نجهضَه، لكنّنا لن نولدَه في المقابل، نُرضعه أملاً ونسقيه حياةً ضئيلة.

لتدعْ دمَك يتدفّق، اسقِه الشمس، أطعمه قمراً، هل يعقل أن يكون ديميتريوس حزيناً في أوج العيد؟

أن يطعنَ الملوَّح نفسه وهو من قال شعراً:

وَقَد يَجمَعُ اللهُ الشَّتِيتَينِ بَعدَما _ يَظُنَّانِ كُلَّ الظّنِّ أَن لا تَلاَقِيَا؟

الحياةُ لا تهتك كلَّ أسرارها، لا تزيح الستارَ عن مبائسها، فلا تدع قلبَ يعقوب ينفطر بحجر أيّوب!

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

١٥ نيسان ٢٠١٨ _ المنفى.

صديقي يوسف.

مذ أن وصلتني رسالتُك وأنا حائرٌ يا ابن أمّي.

أنت أيضاً تأتي بأصعب الأسئلة!

لن أنزفَ هنا يا أخي، لكن سأقول لك ما قاله تشيخوف: يعذّبني سخطي على نفسي، فأنا آسفٌ على حياتي التي تمضي بسرعة وعلى هذا النحو غير الممتع، أفكّر في أنّه من الخير لو استطعتُ أن أنزعَ من صدري قلبي الذي أصبح ثقيلاً هكذا.

أمّ تشيخوف تفهم ابنها، وتفهمني أيضاً، تلك الرسائل كانت لكلينا!

ما الذنب ذنبي بل كانت أقدارنا يا أخي، المستضعفون ينتظرون نار التنّين بلهفة كي يتناولوا الكلمات بشهيّة المطعونين بصدورهم، فهمُ الآخر، وأنا أنا، هل أنتَ؟

سألتَني عن الربيع، الربيع! لا أدري أين هو في حياتي.

يُقال أنّه بهذا الفصل يستَوي اللَّيلُ والنّهار، لِمَ لا أرى غير الظلام هذه الأيّام؟ أتعتقد أنني أبحثُ عن قمرِ الصحراء وهو محاق؟ أو كما قلتَ يا عزيز القلب: وَأَدَه الغياب.

لستُ أنا من قَطَعَ الحليب عن طفلي يا أخي؛ الطفلُ في صدري تركتْه أمُّه وحيداً، يرفض الحليب من مرضعةٍ أخرى، حتّى أنّني أتيتُ له بمايا، هل تعرفها؟ هي مربيّة توت عنخ آمون، لكنّ حزني أقدمُ من فرعون وأكبرُ من كلِّ الملوك.

الحزنُ كالعنقاء أيضاً محضُ ترّهات، يَحترقُ في جوفِ الروح، يُصبح رماداً ليخرجَ منه حزنٌ جديد.

كما قلتَ لي يا أخي لسنا سوى قربان، أنت تُقدّم نفسك لدورِ النشر وأنا قدَّمتُ نفسي للجائرة.

وقعَ كازانوفا في المصيدة أخيراً، قدَّتْ قلبَه من دُبُرٍ عند قدومها، طعنَتْه من قُبلٍ عند مغادرتها كي لا يعرف من بعدها أنثى أخرى. البقاءُ للمُحِب المُهشَّم في نصل الحياة، كما ذكرتَ أنت!

كلُّ المحاولات لجعل الوردة من دونِ شوك باءت بالفشل، أنتظرُ القميصَ يا يوسف فقلبي تصدَّع حزناً.

أنسيتَ يا ابن أمّي أنّ جوادَ طروادة كان من خشب، وأنّ احتلالها كان خدعةً كخدعة الحب؟ لو أنّها بجانبي كان للخشب روح، وطروادة لم تسقط!

تدفّق الدم من قلبي خمراً وأَسكَرَ روحي يا ابن أمّي، فلم أجد نفسي إلا ديك الجن بحبِّها، قُتلت ورداً بعدّة طعنات، التهبت الشمس وانكسف القمر للجائرة.

أودّ لو أستطع أن أستنشقَ الزعترَ البرّي المغموس بالبقاء، متعبٌ والقلب يحتاجُ لنبض، تنتشرُ الذكرياتُ في نيسان كالسمّ، أخافُ الدموعَ في هذا الشهر ومن انتهاء القهوة في هذه الساعة المتأخّرة.

أما زلتَ تحتسي الشاي بارداً؟ إيّاك واللّحاق بي، ارتشف القهوة كي لا تقع بالمصيدة فهي تزداد مرارةً على هيئة الأيّام.

كم هي مؤلمة هذه الجملة يا صديقي:

"هل نساوم على أنفسنا؟"

لا، ليس لهذا الحدّ، إنّما كما قال جدّي العاشق الأوّل الملوّح:

ألا قاتلَ اللهُ الهوى ما أشدّه _ وأسرعه للمرء وهو جليدُ

دعاني الهوى من نحوها فأجبتُه _ فأصْبَحَ بِي يَسْتَنُّ حيث يُرِيدُ.

سأذهبُ مع الخيل للسماء علّني أستعيدُ نفسي بعد الاتّكاء على الضعف لمدّة ألف عام من الخذلان، كسرتْ قلبَ العاشق لعينيها ورحلت، أحاولُ أن ألملمَ ما تبقّى مني لأحتضنَني؛ لأغفى على كتف النهر؛ لأزورَ المقابر في المساء بعيداً عن الضوضاء، أهرب للجبلِ الكبير هناك حيث علّمنا الغرابُ كيف نُكرِم الموتى، بعدما ارتُكبتْ أوّل جريمة وأقحمَ قابيلُ خنجرَه بأخيه، تركه في العراء.

سأنامُ على الأرض الأولى، أحاور السماء: لمَ كلّ هذه الدماء وهذه القسوة منك؟

لن أستمعَ لصوت الماء المكسور، سأقرعُ طبولَ الحبّ من هناك وأشكر الإله على ما ناله أيّوب وعلى رتق قلب يعقوب.

لن أجهضَ ما كتبته يا عزيزي، سأمرُّ برسالتك إذ أخلو إلى نفسي، كما يمرُّ دمشقيٌّ بأندلسِ.

أنتظرُ ردَّك بفارغ الصبر، أتمنّى أن أقرأ خبراً جديداً عن مجموعتك القصصيّة يا صديقي.

ما دامكَ هنا سيبقى للعدم وجود.

المُخلص لك: محمد المحمد.

١٧ نيسان ٢٠١٨ _ المنفى، أيضاً.

يا ابن أمّي، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

لماذا لم يبردْ قلبُك بعد؟ هل كنتَ في أبيات الأصمعيّ من قبل؟ أكان يتحدّث عنك على الصخرة المزعومة؟ أيُّ شقاءٍ هو هذا؟ أيُّ شقاء؟ إنّ الأغنياء يستطيعون اقتناءَه ليدخلوا في خضمّ التجربة، ثمّ يتمنّون لو أنّ ملعقةَ الذهب كانت من حديدٍ صدِئ، أهزم نفسي إذ أقول بأنّ الشقاءَ حلوٌ عذب!

هل كانت المشيمة تقطر حزناً عند تشكّلها؟ أكان الحبل السري نصلاً حاداً يقتات دون أن يُطعم؟

لا يلتقي شمسٌ وقمر بآن واحد، أيّها العزيز، لذا الربيع غائب، هذا ما تصبُّه الحياة في ينبوع الوهم والوهن!

مايا ربّت حزناً، ريتّا أنجبت انتظاراً دون هوية، الليلتان ولبنى ارتكبن جرماً دون دراية، بيد أنّ تركَ الحوراء وحدها ظُلِمَت! مثل هابيل!

أيعقل أنّ الواحدة بعد خمسمئة وخمسة وستين قد طرحتْ جاكومو صريعَ حزنه؟

إنّ هوميروس لم يمتطِ ذاك الجواد في إلياذته، آن لك أن تحرقَه، انفضْ رمادَه واصنع أحصنةَ بحرٍ تطير، تهبط نجوماً لتصنعَ برجَ شجن.

أشربُ الشاي ورأسي مصدوعة كما القرفة لاذعة المذاق، إنّ الأيّام تمهّد قبل قدومها، مرارة السمراء لم تعد تكفي، على الإنسان أن يستبدلَ الإيثارَ بالأثرة ذات حين، دون أن يظلفَ عيشَه!

الحياة أخّاذة أيّها العزيز، قطعتِ البحرَ هي الأخرى، لم أكن موجاً ولا زَبَداً، لا يستطيع الإنسان أن يحطَّ حزنَه أحياناً، مرّة في حياته، مرّة على الأقل، يُكذِّب نفسه ويشذّبها ويبريها كي تفيضَ سعادة، فينقبض صدرُه وتصعدُ الغصّة إلى حلقه داميةً مثل شوك الصبّار في يد طفلةٍ كانت تبيعه على حاشية الطريق، آهٍ أيّها العزيز، إنّ نزيفَ الذاكرة دمويّ، لو عرفنا فيكتور هوغو لكتب عنّا في بؤسائه!

إنه لينفطر قلبُ المرء حين يدلفُ إلى الهرم في ريعان شبابه، إذ يرى أحلامَه تفضُّ غشاوةَ البراءة والتحقّق وتنجلي دونما إياب! ليشقّ عليه أن يتقبّل كل هذا!

وصلتني رسالتُك منذ دقائق فقط، وها هي أعقاب السجائر تتكوّم ألماً، لم أعد أرى أيّها العزيز، المُقَل تذرفُ دونما ماء، وهذا كلّه لا ضير فيه، إذ ينبّؤنا أنّ امتحانَ الإنسانيّة اجتيز ولو بضآلة!

إنّ المشكلةَ بحدّ ذاتها تكمن في هذا الأمر، الجناية، الجاني والمجني عليه!

هابيل وقابيل متعاضدان متماسكان أيّها العزيز، إنّهما في ملحمة من العناق بالأسفل، هذا ما يخيّل إليّ، أو أنّ القرفة قد بدأت تعبث في تلابيب الدماغ!

لا أدري، ولا أجسر على الدراية، إنّه ليرتاح المرء إن ترك كلَّ شيء كما هو، لا يُبالي بما هو قادم على نحره، لكنّ الماضي يشنقه غرقاً بالعبرات والجوارح!

لديّ طفلة اسمها سيلينا، لم أخبرك عنها إلى هذا الوقت، هي طالبة تدرس في الصفّ عندي، تأخذني إلى الماضي بتقاطيع وجهها، إلى البحر الغريق، وقارب النجاة القاتل الذي أقلَّ من أُحب، ليصعب عليّ أن أكتب هذا! صرختُ بلا صدى بأن تُبحرَ بجهةٍ معاكسةٍ إلى دمشق، دمشق منفاي الآن. رنّة العود تكبحُ جماحَ الخيّال كلّما أوشكَ أن يرسمَ فرحاً، "يا مسافرة في البحر"

كنتُ أقول أيّها العزيز أنني أنسى الحصّة كلّما رأيتُ تلك الطفلة، ولا أجرؤ أن أظهرَ بين الناس لجحوظ عينيّ من الكتمان!

ثمّ فجأة، يُغشى بصري ولا أستطيع الرؤية بشكلٍ واضح، فأخرّ مغشياً على قلبي، وأرجعُ بي إلى الحرب والهرب، الفرص الضائعة، الفردوس المفقود، آهٍ من هذه الحرب، أيّها العزيز، آه منها! خسارةٌ تتكدّس فوق أخرى، إنّ هذه الراء أوقح من الوقاحة ذاتها!

قد سألتَني آخر الرسالة عن المجموعة القصصيّة، إنني لم أعد أحبّها، لكم هو مضنٍ هذا اللؤم منهم! كأنّنا نشحذُ الحبرَ مثل الحياة! إننا في أعلى الحضيض، أيّها العزيز، في أعلاه تماماً. لم أتوصّل إلى شيء بعد، يا لنا نحن! نجرّد أنفسنا في القصص! تمنّيت لو كتبتُ شيئاً مفرحاً، لكن التراجيديا كانت تأخذني، حتّى قتلتُ نفسي في كلّ قصّة، ولم أنجبْ نفسي في الأخيرة، قتلتُني بالحبل السرّي بعد أن ابتلعتُ

المشيمة! كتبتُ للأمّ في عيدها لو أنّها تنجبني دون أن أخوضَ التجربة، وأرسلتُ إلى مجلس الأمن رسائلَ كثيرة، ففعلوا ما فعلوا بي!

وقتلتُ نفسي بنوبةٍ حادّة كوني لا أملك تأشيرة مرور، عذلتُ الأصلَ والفصل فمُنِعتُ من دخول مالي والموزمبيق!

كلّهم يجيبون: نعتذر عن نشر المخطوط بسبب الظروف، وأحياناً لا يذكرون السبب، بئس الحبر حبرهم!

برِّدْ قلبَك يا ملوّح، برّده، أكتبْ فرحاً، لو لمرّة واحدة، إنه ليعتاد القلم! ويخلق ألفَ وجودٍ من العدم، ما دامك هنا.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

١٨ نيسان ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

ها قد انقضت الحياةُ وشرذمَتْنا مُرغَمَيْن! زعقتْ كما تولولُ نعجة وصاحتْ كما دجاجة في المسلخ، ففرَّقَتْ عنقَها عن باقي لحمها ونثرتْ عروقَ الهواء فيها.

إنّ الحياةَ تنفصم، تنسلخ، تصفعُنا على الوجنة اليمنى وتقبِّلُ اليسرى!

ودَّعتُك بالأمس، وأعرف أنّ غيابي مؤقّت، أُسدِلَتِ الستارة على خشبة المسرح، طفتُ في الحوانيت والدكاكين أتأمّل انعكاسي على زجاج الشقاء المُرّ!

"نَبْكي على الدُّنْيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ _ جَمَعَتْهُمُ الدّنْيا فَلَمْ يَتَفَرّقُوا.

المتنبّي"

على الإنسان أن يكتبَ حزنَه كي لا يفيض! إنّ هذه الحقيقة تمرُّ بصرامة على العقل والقلب، حتى لا نغدو صخرةً مُحاطة باللّبلاب! لكنّها تبكي وعبراتُها لا تنضب أبداً لو لم تظهر. لئن أكتب إليك الآن فقد قضيتُ ليلةً رائعة بالفعل، مثخنة بطعنات الذاكرة، ثمّ نمتُ فجأة مثلَ صريع، كلُّ ما بي تعبّر عنه أنتيغون في المسرحيّة التي كنت أقرأها منذ زمن ليس ببعيد:

"انظروا إليّ يا أصدقائي وأشفقوا عليّ

فها أنا أديرُ ظهري في عتبة اللّيل لأقول

وداعاً للشمس التي لن تشرق لي مجدداً

وها هو الموت النعس

يناديني إلى شاطئ أكيرون البارد.. إلخ."

ما معنى أن يصحو الإنسان جامداً شاخصاً لكنّه حزين؟ إنّ كلَّ هذا لا يعدو كونه ترّهة من ترّهات الحياة وتعدّداتها المنفصمة! تتراكمُ الآلامُ وتتكدّس كما لو أنها جبل جليديّ انفجر على حين غرة!

بناتُ العين ماؤه المتجمّد الذي لا يعبر على وجنات الأرض، لكنه يُغرق، يُغرِق بشدّة!

إنني لا أعرف كيف أقول هذا يا ابن أمّي، لكنني كدتُ أموت، كدت أقضي نحبي من هول الذكرى ونزيفها المر، وأنتَ كنت حزيناً، رنّمنا الشجنَ على مسامع ريتّا، قد سئمتُ الأساطير أيّها العزيز! لنهدم الحجارة، من هو سيزيف أمامنا؟ إنني لم أعد أتذكّر غيره منهم! مردّ هذا إلى الحزن الأجوف غير المُنقضي بسهولة!

أكتب إليك، ولأوّل مرة أكتب في ساعات الصبح الأولى، يدي مندفعة أيّ اندفاع! تتسابق مع نفسها، وعيني دامية، سترى اليوم تلك الطفلة، قد أخبرتُك عنها، سيلينا، وستنزفُ ذكرى، وترجعُ إلى السنين، إلى وجه من أُحب، حتّى تضربُ بي البحر الذي أخذها بقارب نجاة، إلى بلد إسكندنافي، لا أعرف إن كان كذلك بالفعل، لكنه نائٍ عني، أمقت الفايكنج يا ابن أمّي! لو لم يكتشفوا هذه القطعة الصغيرة البعيدة آلاف الأميال!

إنني متخبّط، مثل الورد المتمزّق أمامي على الطاولة، أهدتني إيّاه طفلة من الأطفال في الصف. وردتان، كانت إحداهما ميتة لكنّي أخذتها، حاولتُ سقايتها وتعهّدها بالماء، لكنها لم تعش، والأخرى ماتت هنا، أحمِّلُ نفسي كلَّ هذا، إنه ليشقّ على النفس أن تُحيي وردةَ مهما فعلَتْ، فبأيّ سبيل تُنعش ذاتها؟

كلّ شيء مشؤوم، بائس، وبئيس! إنّ الحياة لكتلة من قاذورات تسطع ضياءً أسود!

قد تأخّرت، أبحثُ عن ربطةِ عنقٍ أنضوها وأنظمّها كيفما أشاء، فأرجعُ بي إلى وكالة الغوث، تلك التي منحتْ ربطةَ عنق لِلاجئ، فانتظرَ ريثما يجمع قميصاً وبنطالاً وحذاءً!

وداعاً يا ابن أمي، أسأل الله أن يكلأك برعايته.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

١٩ نيسان ٢٠١٨ _ المنفى، كما عهدناه دائماً.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

طلعَ الفجرُ على الخليقة، نسماتُ صيفٍ باردة تهزّ وريقات الشجر المتيبّس في الأسفل، حشراتٌ كثيرة تحشرجُ أنينَها الأخير قبل بزوغ الشمس، أنَّاتٌ مَخفيّة. صوتُ الذكرى ينقادُ إلى الظلام الدامس مثلما يفعل كلّ وقت، يطرقُ الصدرَ ويتمسّك بالحبال، يشدُّها لأسفل، ثمّ يصنع ندبةً في الحنجرة، يقضمُ من التفّاحة في المنتصف. الشاي البارد يبرِّد كلَّ شيء ويجعل الملمس أكثر نعومةً ويسراً!

أعرفتَ نفعه أيّها العزيز؟ إنّ لكلّ شيء فائدة، حتّى الشاي البارد، المختمر جيداً، الحلو جداً، لكن حتّى بعد كلّ رشفة، بعد كلّ واحدة، مرارةٌ تأتي، خوفٌ يتمسّك بسقف الحلق لا يجسر أن يهبط، بؤسٌ في حشو الأسنان لا ينزلق، وعبراتٌ تصعد من اللّسان إلى الوجنة ثمّ إلى الهدب لتدخلَ المُقلة دونما عودة! يمكن لكلّ شيء أن ينعكس، إنّني لم أعد أعرف إن كانت العنقاء صدقاً أم لا! وكما قلتَ أنت أيها العزيز، مثلما أسلفتَ لي تماماً: الحزن يجهض حزناً من رحمه، ويتكوّن حتى يغدو شاباً، ثم يصير كهلاً مع الإنسان، ويموت معه، تخيّل أنه يموت معه!

كتبتُ وأعيدها: في رحم الحياة تقوّس الجنين!

إنّني في شارعٍ ليس شارعي، في منزلٍ ليس منزلي، أقمتُ مكتبتي على طاولةٍ صغيرة فقيرة اعتلاها غطاءٌ ممزّق، وضعتُ كتباً قرأتها وأخرى لم أقرأها بعد، ورسمتُ لوحاتٍ علَّقتُها على الحائط المُرهق، مزّقت صورةً من جريدة لمعالم البسيطة: قصرُ روما وبرج باريس والسور العظيم والساعة الشاهقة والكثير من الأمكنة، ألصقتُها على الجدار المُتعِب، ألصقتها جيداً، لكنّها ابتعدت عن الجدار في الشتاء إثر العواصف الكثيرة، وكنتُ أقول لنفسي: لا نستطيع أن نذهب وهي لا ترغب أن تأتي أيضاً.

إنني بين ناس لا أعرفهم، ترك الحوراء بعيدةٌ كلّ البعد، حتّى ترّهات الشبكة العنكبوتيّة نطقتْ منذ عام بكذبة، أنّ بيني وبينها ما يقارب ثلاثة آلاف ميل فقط، وهذا كلّه لأكذوبة كبيرة، حماقة، هو نصف كوكب بالكامل، لا ينقص شبراً واحداً!

حرقةٌ في الحلق فاجأتني على حين غرة، الآن، ولا أعرف السبب، رشفةُ الشاي البارد لم تجدي نفعاً! وفي هذه اللّحظة جرّبت القهوة الباردة، إنّني أخلط بين الاثنين معاً كلّ ليلة، واحدة لليقظة وآخر للنعاس، إلا أنهما بلا فائدة، فإمّا أخرّ نائماً بلا وعي، أو يرافقني الأرق حتّى يطلع الضوء، هكذا فقط دون أيّ فعل!

منذ يومين شرذمتنا الحياة، لم أصنع شيئاً بعد، وأنتظر، أنتظر، عبثاً، لكنني أبذل ما أستطيع، أنهيتُ اليوم الفصل الثالث من مسرحيّة "أين الربيع؟"، طالعتُ جزءاً من

مقررٍ لدي، تبقّى ثلاثة عشر مقرراً فقط، وفصلان من العمل المسرحيّ، ثلاث روايات أو أربعة، وعطف دار نشر!

أمّا اللّقاء فلا أظنّه مُقبلاً، أخبرتُك أنّ آخر فرصة ضاعت منذ عام، بعثةٌ سخيفة، ضاعت سدى، راحت، لا أقوى على ركوب البحر أيضاً، ولا يمكنني الطيران إذ لا أملك تأشيرة ولا ورقاً أخضر ولا حتّى السماح بالدخول، السماح بالدخول، لو كان إلى أنفسنا، إنه غير مسموح!

"من أنا بعد ليل الغريبة؟

أنهضُ من حلمي خائفاً من غموض النهار على مرمر الدار، من عتمة الشمس في الورد.."

ها هو درويش يصدح، ينقّب عن ريتّا!

اليأسُ لم يكن رحمةً عليه، لكنّ الموت كان نعمة، وسقطَ مثل نجمةٍ في السماء إلى خيمةٍ في الطريق!

"إلى أين؟ أين الطريق إلى أيّ شيء؟"

إنّه يصرخ وحصانُه على ساحل الأطلسيّ اختفى وحصانُه على ساحل المتوسّط يغمضُ رمحَ الصليبيّ فيه!

لا يستطيع الرجوع إلى إخوته قرب نخلة بيته القديم، هكذا يقول، وأنا أيضاً، لا ليل للحبّ نسكنه بعد وحشة الظلام هذه.

من جديد: إنّه الهرب من الحياة! إنّه الهرب إثر قلّة الموت الذي ننشده! ربّما، بيد أنه لا!

لأجهرنّ أنّ غياب المكاتيب الورقية جرّد العالم جماله! إنني غائب عنك، وأنتظر أن تعيدَ الحياةُ التفكيرَ في نفسها، يمكن للإنسان أحياناً أن يمنحها فرصة، ولو كان يكذب على نفسه! ثمّ ينفصم شيئاً فشيئاً، يتفاقم إحساسه السيّئ، وما إن رأى شيئاً بكى، وما إن نزفتْ ذاكرتُه حتّى جلس مثل تمثالٍ منحوت، مثل رمسيس الثاني، إذ سخر منه النحّات بعد موته، ملك الملوك! يُنحَت بصورةٍ ساخرة!

إنّ القهوة قاسية هذا الصباح، تذكّرني بخومو، وتفتقُ حنجرتي وصدري!

الآن إذ لم أصحُ بعد، أكتب إليك، قد سألتك سؤالاً بالأمس وها أنا أواجهه مجدداً، كلّ صباح: يتفتّح وردُ الحزن وتُشرق الشمس حزناً، لا ضوءاً!

لم أتوصّل لأيّما شيء! ظللتُ البارحة ساعاتٍ طوال ولم أكتب سوى بضع سطور، كلُّ هذا يدفع للحيرة والانكسار مثل عصافة قش، تردّدت كيف أنهي الفصل ما قبل الأخير في مسرحيّة أين الربيع، وتشوّش فكري فكدتُ أمزّق الورق أشدّ تمزيق، إنّه لأمر شاق أن تمضي الأيّام بهذه السرعة وتمّحي!

أحاول جاهداً ألّا أطيل غيابي، حقيقة الأمر: إنّ قلبي متشوّق للقياك مجدداً أيّها العزيز، ولو عبر البرامج الافتراضيّة الحديثة، وهذا كلّه يدلف بي أيضاً إلى نهايةٍ مريرة، أخبرتك عنها.

إنّ مشاهدة الورد الميّت أمامي تتلفني حزناً، ما معنى أن تموتَ وردةٌ أيّها العزيز؟ ما معنى هذا كلّه؟ شربَتْ كلَّ الماء وما تزال متعطّشة على الرغم من موتها، تناثرتْ أوراقُها في الكأس الصغير، شربتْ ماءه كلّه ثم جفّت، لكنها لم تُقتَل، مثل ذلك البطل في القصّة الذي كتب رسائلَ كثيرة لِلجان حقوق الإنسان، فقتلوه بكأسٍ مخالف تماماً لما طلبه! لا أدري أيّ عنكبوت أقام شباكه في دماغي حين كتبتها، ويبدو أنّها سبب رفض الدور لنشر المجموعة القصصيّة، هي وبعض القصص الأخرى، لكنني لن أحذفَ أيّ شيء، والمسرحيّة أيضاً ستُقابل بهذا اللؤم، إنّهم خائفون، حبرهم مرتجف، وما وقع على يدي في ورق المسرحيّة أشدّ حدةً ولذعاً من القصص! ثمّ ليفنى كلّ شيء، لا ضير بكلّ هذا!

أترك وقتاً للحياة كي تلمَّ قشَّها المنثور، لتكنِّسَ آثارَها السيّئة، ثمّ أعود، لا أعلم كم يستغرق هذا من وقت، لكنّني أخاله قريباً جداً.

وداعاً يا ابن أمّي، وسأبقى إلى الأبد

المُخلص لك دائماً، يوسف شرقاوي.

١٩ نيسان ٢٠١٨_ ألمانيا.

رسالةُ انتحار من نوعٍ آخر، آخر ما سُطِّر في الحب.

صديقي يوسف شرقاوي.

أتمنّى أن تكونَ بخير، وصلتْ رسالتك وأنا في حالةٍ يُرثى لها، وأنت كتبتها وذهبتَ إلى عزلتك تبحث عن نفسك والربيع المزعوم.

كيف للقلبِ أن يبرد وهو يعانقُ الشمسَ وقد هَجَرَ القمر؟

الأغنياءُ هم من يمتلكون المالَ فقط يا صديقي، لذا يتمنّون لبضع لحظات أن تتحوَّلَ ملعقةُ الذهب لقلمٍ ويهزّون عرشَ الطغاة في السياسة وفي الحب، هو المُنتقم الأوّل للكبرياء التي سُحِقَت.

كما قال عنه أحمد مطر:

"هذا يدٌ .. وَفم

رصاصةٌ .. وَدم

وتُهمةٌ سافِرةٌ .. تَمشي بِلا قَدَمْ!"

وها أنا أعيش أَسيرَ حبرٍ نازف، أسافرُ إلى العدم.

إنّ الشقاءَ ليس مرتبطاً بالمشيمة ولا بالحبل السرّي يا ابن الأرض، هو مرتبطٌ بأسمائنا!

يلتقي الشمسُ والقمر أيّها العزيز، عندما احتضنتها تفتّحت الأزهار يا يوسف، أتى الربيع، لا تصدّق الكذبة الصادقة أنّ الربيعَ يدوم، لحظةً كان! مجرّد لحظة واندثرَ في الهواء كغُبار الطلع في الخريف.

ستقول لي أنّ الغبارَ في الربيع يتطاير! أعلم بما ستفكّر، نسيتُ أن أخبرَكَ بأنّه ذبولُ نيسان إلى إشعارٍ آخر.

عند مغادرتك قلتُ لك: إنّني أسمع ريتّا، هي التي تسمعني إلى الآن، لم تفارقْ أذني، وما زلتُ أقول لها كلّ يوم: صباح الخير يا ريتّا، وأبكي. نعم أبكي، مَن قال لا يبكي الرجال! إنّني أستعيد حقّي الذي سُلِب مني أعواماً قد مضت.

ابنُ ذريح تركَ حزنَه لنا، وهو يردّد:

"وفارقتُ لبنى ضلّة فكأنني _ قُرِنْتُ إلى العَيّوق ثمّ هويتُ

فيا ليتَ أنّي متُّ قبل فراقها_ وهل تَرْجِعَنْ فَوْتَ القضيةِ ليتُ."

عادتْ لبنى جثةً، ومات على أثرها وترك لنا:

"ماتتْ لُبينى فموتُها موتي _ هل ينفعن حسرةٌ على الفوتِ؟

إنّي سأبكي بكاءَ مكتئبٍ _ قضى حياةً وجداً على ميتِ."

أحبُّها منذ الأزل، في الحجاز قتلني الأصمعيّ بعدما داريتُ الهوى وهو لم يداريني، تجرّعت الموت من يديّ الجائرة.

ليلى تركت الملوّح أيّها العزيز، مات بين الحجارةِ مُلقىً على قلبه.

أتعلم ما هي صلة الوصل بين الملوَّح وبين العاشق عند صخرة الحجاز تحت نصل الأصمعي؟

هُما أنا في بعد الجائرة وطير الكروان.

جميلٌ هذا الطير، منذ أن غرَّد لي، أدمنتُه.

كتبتُ لها في رسالةِ عشقٍ تنتمي لنيسان الربيع الذي مضى:

كفاكَ جمالاً أيّها الطير، عندما أراكَ أتذكّرها، كفاكَ عزفًا فصوتكَ كروان.

ألم أقل لكَ إنني هُما! أحببتُها أتعلم كم أحببتها؟

كنتُ أراها في كلّ البنات اللاتي أصادفهنّ على الطرقات، لا أميّز بين طويلةٍ أو قصيرة فكلُّهنّ هي.

لا أدري حجم عشقي لها، أيكفي أنّها وطني؟

نعم، قلتُ لها: أنتِ وطني وأنا من دونك بلا وطن؛ أنتِ أرضي وأنا من دونكِ منفيٌّ إلى الشمس ولا أملكُ ثمنَ تذكرةِ العودة إلّا الاحتراق بلهيبها، كيف لا وأنا من قال: لا أحد يعلمُ ما حجم الذات الإلهيّة، وأنا لا أعلم حجمَ الوَلَه في داخلي بماذا يُقاس! اسأل اللَّيلَ والقمر، النجمَ والسّهر، شركةَ الهاتف المحمول، كلَّ برامج

التواصل الاجتماعي، أقسمُ سيقولون لك: انتظرتُها ثمان وعشرين سنة، لم يلتئم الجرح الذي في الضلوع إلّا بقدومها.

أتيتُ إلى هذه الدنيا وفي قلبي تَحدٍّ لقيس، من منّا يا ملوَّح سيكون المجنون في الحبّ أكثر!

كنتُ أهتمُّ بأدقِّ تفاصيلها، مَررْتُ بتجاربَ عديدة من قبلها، لكنّها كانت دروساً كي أفهمَ الحبّ وجنونه.

كنتُ أرى أنّ جميعَ الإناث يعشقون التفاصيل الصغيرة، فدوَّنتُها في ذاكرتي. جميعهنّ يحببنَ الرجولة، لا يردن إلّا احترامهنّ، فقلت لنفسي الفصل الثاني من باب الحبّ، يجب أن أُعاملَها كما أحبُّ أن يتعاملَ زوجُ أختي مع أختي.

وكنتُ طوال السنين التي مضتْ أتعلّم كيف يجب أن أعاملها.

وانتظرتُها لأنّني كنت على يقين أنّها ستأتي، فهي من ضلعي وستعود إليه،

عادتْ ومعها ما سقط من عمري، ترجلَّتْ بهدوء على قلبي، أَمْطَرَتْني بملايين الكلمات، سحرتني بقليل النظرات، غصتُ بها في الأعماق، أشعلتُ سيجارةً معتّقة وهربتُ من سحر عينيها، دوَتْ ضحكتُها في جسدي وارتعشَ القلبُ للحظات، فابتسمتْ ابتسامةً لن أنساها ما دامتْ تنبضُ في جسدي كقلبٍ ينامُ بين الأضلع.

وفي ليلةٍ لا أستطع وصفَها، انهدمَ كلُّ شيء، انتهى الفرح وما كان للفرحِ نهاية معها يا أخي!

دخلتْ راءُ اللغة على حبّنا، هشَّمتْ قلبي شظايا كلماتها، وأخذتْ روحي أسيرة. لكنّها خالفتْ أمرَ الرُّسُل كلّهم، فعذابُ الأسير حرامٌ يا ابن أمّي، حرام.

جَثَمَ حبُّها على كاهلي فأثقلني، ازدادَ عمري في انتظارها سنيناً، أتكلّم مع صورها كلّ يوم لأطمئنَّ على حالها وأصعد للمجرّة الأخيرة كي أصرخَ بحرقة المشتاق.

وحيدٌ أنا وحيد لأبعد الحدود، بعيدٌ إلى ما وراء الشّمس، وما بين طيّات الظّلام فقدتُ نفسي يا عزيز القلب، أهاجرُ بين الكواكب والمجرّات البعيدة، أكتبُ كلّ يومٍ هناك قصيدة، تخبرني صحفُ الصباح أنّها لن تعود يوماً وأنّ السوادَ عاثَ بنا فساداً. بينما أسمعُ المآذنَ تَصدحُ بعد كلّ صلاة:

يا من تركتِ قلبَ العاشق لحبّة البنّ على خدّك، مجنونُكِ هنا بحوزتنا وبحوزته ذكراك، يلهو بصورتكِ في الصباح ولا ينام إلّا وهو يردّد: أتماسكُ رغمَ رياح البعد وأضحوكة المسافات، أتنفَّسُ بصعوبة تحتَ تأثير الشوق، رغمَ ألوان طيف العشق وحنين العتاب، بكلّ ما أوتيتُ من قوّة ألتقطُ خيالَ شعرك، لا أريد للبعد أن يأخذَكِ منّي، أستسلم للموت إن لم أرَ عينيك على خبز الصباح وقهوة الظهيرة وعلى الأريكة في المساء.

لم تسمعها أنتَ أيضاً؟

يرجعُ صوتُ المنادي خائباً، متقطعاً، منقطعاً أمله ومبدِّداً أملي، يعود

ليقولَ لي: يُغتالُ خيالُها كلّ يوم، يُباحُ صوتُها، تُبتاع أشياؤك بمزادٍ علنيّ للحاضرين.

لِمَ كلّ هذه القسوة؟ أريدها كسيجارتي، تدخلُ جسدي وتقتلني، لا كدخانها يخرجُ ويقتل غيري، وأفكّر وأنا أحصي عدد السجائر، نعم، إنّها الواحدة التي أوقعَتْ بجاكومو.

سأحرقُ الجوادَ وأطير إليكَ يا عزيز، فقد اشتقت لك، إنّك لستَ هنا وللوجود عدم الآن يا يوسف.

لأنّه نزيف الذاكرة اعذرني، إنّه التاسع عشر من نيسان، في هذا اليوم قلتُ لها أوّل مرة: أحبّك.

فيكتور هوغو لم يكتب للبؤساء فقط فهو كتب عنّي أيضاً حين قال:

"قد يكتب الرجل عن الحبّ كتاباً ومع ذلك لا يستطيع أن يعبّر عنه، ولكنّ كلمةً عن الحبّ من المرأة تكفي لذلك كله."

وهي قالتْ بي قصائد يا أخي.

وقال عنك أيضاً:

"كلُّ صخرة هي حرف وكلّ بحيرة هي عبارة وكلّ مدينة هي وقفة، فوق كلّ مقطع وفوق كلّ صفحة لي هناك دائماً شيءٌ من ظلال السحب أو زبد البحر."

أمّا سيلينا، كم أحببتُ وصفك لهذه الطفلة الجميلة، أهي كدمشق؟ تؤلمُني دمشق الآن وأنا أكتب لك وأستمع لنشرة الأخبار.

متى ستسقط هذه الراء ويهدأ نبضك وترى بشكلٍ أوضح أمواجَ البحر والقمر بين الغيوم؟

سينتشرُ الحبر، وتستدعيك مالي وفلسطين يا ابن الأرض ويصلُ حرفُك إلى المجرّات البعيدة، أنا أنتظرها وأنتظرك.

قال نجيب محفوظ:

"لن يكفيك دفء أحضان العالم مجتمعةً لتشعر بالأمان، ما لم تحتضن نفسك من الدّاخل."

كُن مسالماً مع جوارحك وجروحك لأجلك.

سامحْ ضعفي فأنا عاشقٌ أيّها العزيز، سيبرد هذا القلب عندما تعود وتخبرني عن رحلتك للبحث عن الربيع، ويعود للعدم الوجود.

المُحِب دائماً: محمد المحمد.

٢١ نيسان ٢٠١٨ _ على شفا شيءٍ غير معروف!

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

"سَكِرَ الليلُ ونامَ، فإلامَ _ نَسّهرُ العُمرَ غَراماً يا نَدامى؟

يا حَبيبي عادكَ الحبُّ القَديمْ _ وفؤادي بَعدُ في الذكرى يُقيم

زارهُ النَّومُ رُمَاماً، فتَرامى _ حَولهُ الماضي اضطِراماً وهِياما

يا حبيبي ليتَ ما كانَ يَعودْ _ وشَذى الأمسِ وهاتِيكَ العُهود"

نطقَ الأخوان الرحباني بكلّ شيء، كنتُ أرغب أن أكتبَ كثيراً، لكنّ الموشح سرقَ الكلمات، والعبرات أيضاً!

لا أستطيعُ النوم رغم أنّ عملي يبدأ قبل صياح الديك! كلُّ الأشياء تبعث على الأرق، كتّاب السيناريو على وجه الخصوص، بِمَ يفكّرون وهم يكتبون المشاهد؟ كنتُ أظنّ القصّاص وحدهم من يستطيعون فعلَ هذا!

خلصتُ إلى نتيجةِ تضادٍ لا أدركها، إنّني مازوخيّ، ساديّ في الآن نفسه!

جعلتُ أسأل نفسي ما كلّ هذا؟ إن كان الحصادُ هكذا فما هو الزرع؟ أيّة ثمرة صنعتْ نتاجاً كهذا؟ أيّ موسمِ حصادٍ ننتظر؟

وكان من نصيب الليل أيضاً أن يخبرني أنّ الحياة ساديّة وأنا مازوخيّ، أو الحبّ ساديّ وأنا مازوخيّ، أم أنا ساديّ وكلُّ شيء مازوخيّ! إنّه صراع طويل، لا شيء يقضي نحبَه في النهاية بسهولة! ورجعتُ إلى الأسئلة التي طرحتها آنفاً: أي جذرٍ خلَّفَ هكذا حصاد؟

هو ليس أرقاً بدقّة أيها العزيز، لكنّ النعاس لا يأتي، انقضى اليوم مثل الأمس بلا أيّ شيء! لم أكتب حرفاً،

قرأتُ جزءاً ضئيلاً إلى حدٍّ كبير من مقرّر آخر، اضطربت، صُدِعتْ رأسي وآلمتني حتّى هدأت. إنّه ليشقّ على النفس أن تحاولَ صنعَ أيّ شيء دون استطاعة!

لا طعم للشاي البارد، ولا للسجائر، تأمَّلتُ كتاب الفسيفساء الذي كان آخر ذكرى، قرَّرتُ منذ شهر إلا بضع أيّام أن أخطَّ المكاتيب عليه، كتبتُ في ذات اليوم رسالةً طويلة، توقّفت على حين غرة! أتذكر ذاك اليوم الذي اندفعتُ فيه اندفاعاً حاداً وأرسلت؟ كنتُ سأعيد فعلتي منذ يومين، لكنني لم أفعل!

إنّ الليلَ يأتي بسرعة! أو أنّني صحوت بوقتٍ متأخّر! لا أدري! منذ برهة كتبتُ التاريخ على أنه العشرون من نيسان، والآن أغيّره، لكن على الرغم من هذا المرور الكريم للنهار وتعاقبه السريع، إلّا أنّه جعلني أدرك شيئاً أسلفته لك منذ دقائق فقط، الحياة ساديّة ونحن مازوخيّون، أو العكس، ما يهمّ أنّه لا بدّ من وجود ضحيّة وجلّاد!

أودّعك الآن يا ابن أمي، سأعود قريباً، سأبذل جهدي كي أعود قريباً.

أسأل الله أن يكلأك برعايته.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

٢١ نيسان _ على شفا الشيء نفسه!

السادسة صباحاً، إلّا بضع دقائق.

صديقي.

كيف حالك أيّها العزيز؟ قد نمتُ مئتَي دقيقة فقط، صحوتُ بهمّة عالية، ولأوّل مرة، أو الثانية أو الثالثة، أعدُّ القهوة بنفسي، لكنني لا أشعر منذ اليوم الذي شُرذِمنا فيه إلا بالحزن أو البؤس!

وتأكّدت هذا الصباح معنى أن يستيقظَ الإنسان حزيناً، تخيّل! يكون مازوخياً بالطبع، وتستفيقُ الحياةُ معه بساديّتها وسذاجتها! لتغبط الذاتُ ذاتَها إن توصَّلَتْ إلى خلاصةٍ ما! والآن بعد أن وجدتُ جوابَ سؤالي، أتساءل من جديد: ما على الإنسان فعله؟ كيف يقضي حياته؟

بعد المسلسلة التي اطّلعت عليها منذ فينة؛ رحتُ أمقت التضحية، وكان صدقاً أنّه على الإنسان استبدال الإيثار بالأثرة ليعتلي سقف طموحاته.

إنّ أحلامَنا الصغيرة الضئيلة، وربّما القذرة، كبيرة بهذا الموطن الكبير، من محيطه حتّى خليجه، لا يتّسع أحلام أمثالنا. تراودني الأغنية الروسيّة على حين فجأة: "يا ليتني طير .. يا ليتني صقر .. إلخ"

إنّ أحداً لم يغنّيها، لكنّي حظيت بها في إحدى روايات دوستويفسكي، وقد تمسّكتْ بحبال ذاكرتي بلا معنى!

بيد أنّ الكتابة بالنسبة إلينا _قبل أن ندرك ما نكتب_ محبّبة جداً، إذ ترى نفسك كتبت كثيراً دون أن تعرف! إنّ هذه الساعات جميلة، زقزقة عصافير، بزوغ شمس، شفقٌ يتربّع السماء رغم أنفها، يرسم أطيافاً، وهنا، هنا ذاتاً، تمّحي بهجةُ ساعات الصبح الأولى بلا مُنازع! نزيفُ الذكرى الدامي مستمرٌّ أبدَ الدهر، وهذه نتيجةٌ أخرى بلغتُها! يا للوحدة كم تجعل الإنسان يدرك نفسه!

أنوي أن أرجعَ اليوم نشيطاً جداً أيّها العزيز، لأنهي ما تيسّر لي، لكنّني سأعود بلسعة شمس، لن أقوى أن أفعل شيئاً، فأقهقه داخلي، وأعلم كم ساديّة الحياة سخيفة!

إن لم أفعلْ شيئاً خلال اليوم والغد، سأعود حتماً، لكنّني لا أستطيع القراءة، ولا أستطيع النقد رغم أنّ هذا ما يقتضيه عملي ومدى مساهمتي، إنّني أعاني الكثير!

أودّعك الآن يا ابن أمّي، علّ الصباح يوصلك إلى نتيجة مخالفة!

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي

صديقي العزيز.

ها قد عدتُ الآن، وكما توقّعت تماماً: فتكتِ الشمسُ بي، مطرقةٌ بين تلافيف عقلي تقوم بضرباتها العادلة، وقد خرجتِ الكلمةُ الأخيرة منّي دون أن أعي أيّ شيء، ومردّ هذا إنني مازوخيّ بالفعل! يا لكلّ هذا!

أعطوني الطالبات الصغيرات ورداً مرة أخرى، هنّ يفكّرن أنّ الورد سيبقى حياً بعد القطف، وأنا أصدقّهن، أضعه في الماء كي يحيا، لكنّه عوضاً عن ذلك، عوضاً عن الشهيق والزفير؛ يلتقطُ أنفاسَه الأخيرة أمامي. أنامُ في اللّيل أو في الصباح، ثمّ أصحو لألقاه ميتاً، وقد سألتك: ما معنى أن يموت الورد هكذا؟ كيف ليد طفلةٍ بريئة أن تُميتَ وردة؟ كنتُ أهرع إلى البيت لأضع ماءً، أغرقتُه، أغرقته بالماء الكثير علّه يحيا. أمامي وردتان جوريّتان، واثنتان من اللون الأبيض،

أمّا الورد الذي لقى حتفه البارحة، عطّرته، جعلته تحتَ أشعّة الشمس، لئن يمت، ولئن لا يتنفّس، سأظلّ معه، ولا بدّ لورقه المنثور أن يلتمَّ من جديد! لكن ما معنى أن يموتَ الورد؟ إنّ هذا السؤال ينخرُ رأسي، ومهما كانت الإجابة، لن أقتنع!

هتكتِ الحياةُ أوّل أسرارها، انفصامها الشخصي، أو فصامها الدائم!

هواءُ نيسان برفقةِ حرقة الشمس، ليس خريفاً ولا ربيعاً ولا صيفاً، إنّه لا شيء!

تطلُّ الشمسُ لبضع ثوانٍ ثمّ تختفي، ثمّ تعود، ثمّ تختفي، وهكذا دواليك!

مولدي بعد ستّة أيام، أخالني كبرت كثيراً، عقدان حقيقيّان، ومئة من الحياة!

يا له من كرمٍ وخلود! يا له من ينبوع مشقّة لا ينضب!

أرجع بي إلى السنة الفائتة، تُرك الحوراء كتبتْ، أظنّها لن تفعل هذا العام، لكنّني أتمنّى، أتمنّى بشدّة! أوشك شهرٌ أن يمرّ على المكتوب الأخير، كم كنتُ وحيداً قبل تلك الساعات الأخيرة من ليل آذار! توصّلنا إلى اليقين الأخير: أنّ أحداً لا يعرف ما هو قادم! كتبتُ رسائلي على الكتاب المزيّن بالفسيفساء، لو كان في ذلك ما يجرحني، فقد فكّرت بالسابق أنني سأتركه فارغاً حتى ألتقي ترك الحوراء من ثمّ نكتب في صفحاته معاً!

كتبتُ حين أخذت الكتاب نظماً مكتظاً بسذاجة الوقت، ألاعيب الحياة، وأكتبه الآن من جديد أيّها العزيز، إنّ شيئاً لا أعرفه يدفعني كي أكتبه:

إليّ أنا، إذ لا أجد في الطريق إلّاك

أبحثُ عن أناي، فتظهرين

شجرة خضراء، خضراء، بتبسمٍ شقيّ

وصِبا كان على حين غرة، ضائعاً

لولا الأضاحي!

عمرٌ يشيب، يصبُّ نهرَ شقائه في صلب عاشقَين.

لولا الحياة، كنّا التقينا، رغمَ أنف نصف كوكب

في اللامكان هناك، تحتَ ظلّ عشبٍ رطب

لكنّ القدرَ تثعلب، كشر عن أنيابه في وجه ضحيّتَين!

جانٍ وحيد، وأضحيتَيْن

في عيدٍ لم يأتِ

بقعر السؤال: أين الربيع من فصولك؟

يا حياة!

في رحم ذكرى لم تمت يقحمُ الألم يديه

يُخرجُ تسعَ رصاصاتٍ وبحراً غريق!

لا حمامة للسلام هنا، ولا هناك

ثغرُ الشرور يسطّر المسافة

بين كأسي وكأسك!

يضغط الدهرُ على الزناد، ينفتح الرصاص

على سمكةٍ غريقة، بضفيرةٍ بيضاء

لا تخاف البلل!

لوحةُ يافا تُعيد إحياءَ نفسها، في ذكرى عامَين

ويصدحُ صوتُ شاعرٍ ميت:

أنا الذي ضعتُ سنتَين!

تروحُ الحياة في ماء النزيف

إجهاضُ الذاكرة لجنين العهد القديم

حيث لم تُخلَقْ سوى يدٍ واحدة

تشقُّ الطريقَ نحوَ الأخرى

فتتشظّى الأصابعُ بسقم الشقاء

وتنساقُ التجاعيدُ إلى وجهٍ نقيّ!

لعينَيْن من عشب الحنان

في انقلابِ همزٍ وميمٍ ولام:

أملٌ ... ألم!

في غياهب النسيان.

قمرُ يافا وورقٌ منقوش

ضبابُ الفسيفساء يتجلّى

بينَ الوجودِ وبين العدم!

لا ذنبَ للصدق، بينَ قضبان شرّ الحياة

لا إثمَ للبراءة، حين يلطّخُها وَحْلُ الدّنس

على عتبة الظلم، على أبواب اللاعدل

مددتُ زندي، في عتمة اللّيل الطويل

بانتظار غفوكِ على الزند، حتى ضُغِطَ الزناد

وأُصبْتُ، وأُصبتِ

بداء الشلل!

أملٌ ... ألم!

أيّان يحنُّ بحرٌ على غريق ويعمى الرصاص؟

أيّان تغفرُ الحياةُ لذاتها وتُصْلَبُ بندقيّة؟

قلتِ: لو بعد حين! هذي الحياة!

وأجابتِ الحياةُ بدورها: حين يُجمَعُ شمسٌ وقمر!

فكانتِ الفصولُ جميعها، تيمِّمُ وجهَها

شطرَ وجهي ووجهك

إلا جواباً عن سؤال:

أين الربيع من فصولك؟

يا حياة!

أُصيبَ بداء الشلل!

فلا تترقّبا، يا ضحيّتَيّ

على مهل!

إذن، أيّها العزيز، ما معنى أن يموتَ الورد؟

إنّ الحياةَ تهتكُ أسرارَها شيئاً فشيئاً، لكنّها لا تنزع الحجابَ عن مبائسها!

هذه نهاية الجرف! بيد أنّ الشيء غير المعروف كشفَ عن نفسه.

أودّعك الآن يا ابن أمّي، أسأل الله أن يكلأك برعايته.

سأبقى دائماً المُخلص لك: يوسف شرقاوي.

صديقي يوسف.

هل أتيتَ من رحلتك أخيراً أم أنّك ما تزال بين فكّي الحياة؟ ودَّعتَني وانعكسَ حزنُك على وجهي، فكتبتُ لك في لحظةِ شوقٍ موجعة.

يوسف يا ابن الأرض، في يوم الأرض أين أنت؟ اشتقت لك.

أتفقّد البريد الإلكتروني يومياً لعلّي أجدُ منك رسالةً تُبرِّد هذا القلب، أحقاً الطريق للبحث عن الربيع شاقّة، كرحلة جلجامش في البحث عن زهرة الخلود؟

قُتِلَ أنكيدو يا أخي، وقع في مصيدةِ الجائرة، فعوقب!

ما زالت ريتّا تستمع لصباح الخير من درويش الحبّ.

لطالما حلمنا بأرجوحة الحريّة كالماغوط أمام القاضي لكن كان الحذاء مهماً لمتابعة المسير.

كنتُ خائفاً جداً من رسالتك الأخيرة، نشرة الأخبار تصدح في أذنيّ والقلب يصرخ: كفى، لم أكن صانعَ أملٍ مؤخراً.

الموت، البعد، الفراق، الاشتياق، يعيشون داخلي يا ابن أمّي.

البيوتُ تموت إذا غاب سكّانها، وإنّي لأسمع احتضار حيطان منزلنا المُتكّئ على أكتاف مقبرة المُحبّين، المستلقي في راحة قاسيون، أكاد أرى عيونَ غرفتي تدمع،

أنين عتبة المنزل، يد الباب تمتدّ للمارّة وينطق الدرج: هل رأيتم أحبابنا؟ قد طالت غربتُهم عنا!

لكن على الرغم من بحر الدماء الذي أحاطني من كلّ حدبٍ وصوب والكوارث التي تَفتكُ بالعباد والبلاد، رغم ذلك الدمار الذي حلّ إلّا أنني نجوتُ بأعجوبة!

نجوتُ معانداً كلّ أشكال الموت، مستنشقاً هواء السلام، مقاوماً روائح الجثث وفتيل البارود، لذلك لا بدّ لي أن أُكافئ القدر، فقد أهداني فرصةً جديدة للحياة،

ولا بدّ لي أن أقضي ما بقي لي من هذه الفرصة في محاربة صنّاع الحروب، حروب أنهتْ حياةَ الكثيرين في بلدي ببرود عينٍ ترمش، وأنهت الفرح من رسائلك!

أنتَ هناك وأنا هنا، نقطتان في هذا الفضاء، لِلّقاء أشتاق وللنسيان أمضي، أصنعُ لي القهوة كي أستريح؛ يجب أن أنيرَ ما بين النقطتين، أن أشعلَ النور، ولو ألهبت أصابعي،

أن أشقَّ طريقاً واضحةً ناصعةً مليئة بالسلام، لي ولك وللآخرين من حولي، فنحن سئمنا الموت، الدم، الحرب، ودور النشر، ولا بدّ من إيجاد مبرِّرٍ لهذه الحياة يا أخي!

الهروب لن ينفع الجائرة! أحبّها، وهل هناك مهرب من الحبّ؟

طيفُك يا روما يسكنني ليلَ نهار! أنا سيزيف المُعذَّب بكِ، صخرةُ حبّك جاثمةٌ على كتفي، صوتكِ ثاناتوس الذي وارى قلبي، وعيناكِ زيوس الذي بجّله الإغريق كلّهم.

قامتْ ثورةٌ بمملكة النحل وهربتْ شعرةٌ من الحصان لتقسمَ ظهرَ الماغوط بشوارع المنفى وخانَ وطنه، تشتَّتَ الملوّح بين يديّ الجائرة يا ليلى، لم يكن وحده من هلك.

كُلُّ الذين صادفتهم قالوا أنّ الخشبَ كان قاسياً على المسيح.

الحبّ لغيركِ لم يُخلق

وإنّني أحبُّكِ منذ الطفولة منذ الصلاة الأولى

وحتّى النفس الأخير

عشقتُ خطواتك قبل أن أراكِ

أحببتُ الشوارع التي تؤدّي إلى منزلك

أنتِ الحبُّ واللاحبّ

وفينوس العشق الجديدة.

يا منْ كنتِ مبرراً للحياة، دواءً للجرح، سنداً للقلب، بيتاً للعمر، أغنيةً للروح، أنشودةً للعقل! والآن، أين أنتِ مني؟

لم أرتكبْ أيّة حماقة، مع ذلك لم أسلمْ من حقد البشر على البشر. أهربُ من الجميع، والمصادفة تضعني في حياة الناس الاجتماعيّة ومشاكلهم، وتصيبني شظاياها بقضيّة.

عودي لموتكِ المسلوب

لحكاية القدر

لنصيبكِ المكتوب

وسريركِ الذي احتَضَر.

تاهتْ منّي عيوني على وقعِ دخان السجائر وبقايا القهوة في كوبٍ ماضٍ يا يوسف، أنتظرُكَ بفارغ الصبر وأنتظرُها بفارغ الشوق.

المخلص لك: محمد المحمد.

٢٧ نيسان ٢٠١٨ _ ألمانيا.

أجمل يوم في نيسان الذكرى.

يوسف العزيز.

هو يوم ضحكتْ به السماء وذرفتْ فلسطينُ دموعَ الفرح ودوَّنَت اسمَ كاتبٍ جديد لقائمتها، فهذه الأرض لا تُنبت إلّا من يعلقون في ذاكرتنا كما قلتُ لكَ سابقاً: الشهيد، الكاتب، الشاعر، الفدائيّ، الجميلة، والجائرة.

في يوم ميلادك يا ابن أمّي، لا أستطيعُ البوحَ بكلّ الفرح، تحتاجُ دور النشر أن تراكَ بعينيّ، سيتحاربون على ما تخطّه أناملك. في يومٍ ما يدركون بأنّهم على طمع، سيقطّعون أيديهم يا يوسف لتركِ رسالتك لمجلس الأمن في درج مكتبك.

قطعةُ الجبن للفقير على أعتابِ الموت أَشهى من كلِّ شيء، سيهربُ اللّيل من سمائك وسماء بلادي، فيضٌ من أمطار نيسان يجتاحها، علّه يغسلُ قلوبَ البشر وتنتشرُ روائحُ الياسمين والحبّ مغموسةً بكلماتك في أزقّتها يا عزيز.

تذكر تلك البقرة! بان كي مون يشعر بالقلق منها، من حليبها صنَعَتْ قطعةَ الجبن، ويخافُ من قلمها أيضاً أن يطلقَ الرصاص، لذلك تدخّلت القوى العظمى بقضيّتها.

قرأتُ عن تلك البقرة الضاحكة يا عزيزي منذ يومين أنّها أُصيبَتْ بالجنون، ومن كان بهذا الحال لا يؤخذ على كلامه؛ فكلُّ شيءٍ مُقترن بالجنون هو مرض، وليس على المريض حرج!

كنتُ هناك في المجرّة البعيدة بالانتظار، أتابعُ بينَ الأخبار ليطمئنّ قلبي، عن ليلى البعيدة القريبة، هذا الخبر جعلني أتمسّك بالمجرّة أكثر وأتعلّق بالبعد عن ذاك المجتمع.

أنتظرُ الجائرة، أحبُّها بقدر البعد الذي بيننا، لا يندم المُحِب على حُبٍّ أحبَّه، فالحُب صدقةٌ ليس بعد دفعها كلام. ما زلتُ أنتظر عينيها أن تُلقي على قلبي السلام، أتدري يا عزيز القلب بأنّ لغرورها حقاً في تعاليه ما دام البنّ على خدّها ينبت؟

كتبتُ لها:

سأهدمُ الجدارَ الذي وضعوه بيننا وحجَبَ عنّي صورتك وعيونك.

سأرمّم الطريقَ إليكِ بملايين الكلمات وأُصلح ما أفسده الدهر يا أيقونةَ العمر. تسكنين في فؤادي أبداً، صنعتُ البرزخ في عينيّ كي لا أرى غيرك من النساء وخبّأتك، كففتُ عينيّ عن كلِّ شيءٍ وما بات بين ضلوعي منذ عرفتكِ إلّاك!

بعضُ البشر يا أخي يتركوننا بسجنِ الاشتياق مُكبَّلي الأيادي. لا ندري أين نذهب منهم، ولا نعلم أين نسأل عنهم. يضعوننا في خانةِ الانتظار ويمارسون الغياب، ما عسانا أن نفعل في الغياهب؟

مؤسفٌ عندما يسألُكَ الناس عمّا أصبح ذكرى لديك، فتجيب: بخير! وأنت لا تدري! تذكُرُ الأيّام الجميلة معه وتبتسم ابتسامةً مكسورة.

سامحْ ضعفي مرةً أخرى فأنا عاشق وهي تشاركني حتّى الرسائل إليك.

اشتقتُ لكَ يا يوسف، أنتظرُكَ بفارغ الصبر وأنتظرُها بفارغ الشوق.

كلّ عام وأنتَ بألف خير يا ابن أمّي.

المُخلص لك دائماً: محمّد المحمد.

2 أيّار ٢٠١٨ _ بيتُ القصيد الطويل، حيث الأغاني والأيائل والأيك والسهول، حيث ترنيمات الإغريقيّين وصَداح الغراب بتاسعة بيتهوفن، وفي ذات المكان أيضاً الذي رغب الماغوط أن يعانقَ الناس فيه.

ابن أمّي.

أكتبُ داميَ العينين فَرِحاً، أغبطُ نفسي، يدقُّ قاسيون طبولَ الحب، أَعادَ القميصَ المقدود مزيناً، الذئبُ غدا أليفاً هذا الصباح، ونردُ الحظّ يتوزّع بين السَعْد والأمل، كلُّ أوجهه ترسم الغبطة.

حارسُ شآم الحب، مَنْ يتحمَّل كلَّ المشقّة بصبرٍ لاذع، من يطهو فرحاً على نيران الصمت ولظى الانتظار، نيرون الحي، ومُنتظِر تُرك الحوراء في تأمّل فنِّ حصار الحياة، متعاضدٌ متماسكٌ كما هيبلونوف، تشدُّ أزرَ الحياة وترتقُ وتضمِّد جرحَها بطريقةٍ عكسيّة، بهدوئك التام رغمَ غياب صدى إيكو، وباستقبالك للديجور الطويل بعينين واسعتين وقلبٍ يحترق، لكنّه يُبرِّد نفسه بنفسه.

يا ابن أمّي، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح، ضمادُ نتوئها وخيوطُ السكينة الجاثمة على كلِّ ندبة، هدأةُ اللّيل الشريد بشجنٍ دونما عويل.

إنّ الشام ولّادة يا ابن أمّي، هيهاتَ لك، في مولدك، لا أكتبُ على حاقّة الهاوية، عدتُ إلى درب الربيع من أوّله، ولا ضير في ربيعٍ يرافق يوم أيّار الثاني!

بل لأضعها كما يلي: السماءُ صافية خلّابة تماماً، أسرابُ حمامٍ تحلّق في الأفق الواسع وتغرّد لحن الحياة، نسماتُ الهواء هادئة ساكنة، تبعث في النفس شعوراً يبدو جميلاً إذ يقول بأنّ كلّ شيء بات قوسَ قزح! أسقفةُ الأبنية القرمزيّة تسيلُ وتنزف بياضاً،

كُلُّ شيء يعكس نفسه اليوم. الحياة تشعّ ضياءً أبيض، مركبات الريح أُصلِحَت دون هوادة، ما تزال أنت هنا، أيّار أنت، الحياة فكَّتْ فكَّها وبسطتْ لسانَها الرَطِب تؤلّف غزلاً.

لستَ سيزيف المُعذَّب يا ابن أمّي، بئسه صبراً لو لم يربت على أكتافنا! ديميتريوس يطلّ برأسه من خلف الستار،

حتّى قيس يحمل الخيمة ويركض بعيداً، ليلاه هنا، ومعه، وقيس الآخر ينصب خيمةً أخرى، يأكلُ القمحَ مع لبناه، إذن فكلُّ شيء عائد، وقد خلصتُ إلى شيءٍ في اللّيل، أنّ رولينغ لم تنشر سلسلة هاري بوتر إلا بعدما رُفضتْ من اثنتي عشر دار نشر، بيد أنّ لي واحدةً أخرى للرفض وبعدها ليحدث ما يحدث.

أريدُ أن ينجبلَ أيّار كخلايا الملح في دم الكلمات، لثلاث دهور وعمر قارئ.

هو النشوة بين حبَّين ونظم شاعر.

هو الذي ينبت اللسانَ أوركيداً وزهراً

بين طيّات الجوى، والهوى

يمضي بنا

حيث الحياة.

أيّار لا يُكرَه، ثلاث ثوانٍ عمرٌ كافٍ

ليعيدَ العليلُ هشَّ جسده جذعاً

ويصلبَ بندقيّته كلّما زخّ الخريف رصاصَه وسع المكان

في قلبي الضئيل

هو الراء المحذوفة من صلب حاءٍ وباء

تُبقينا قيد الأمل، نتلمّس أشعار عنقاء أنفسنا.

قد نُعيد النظر لأبولو لو قرأ

ونمحي عتمته الشريدة

قد نمنح زيوس لقاءً بهيرا

وننثر نحن

مثلَ بهجةٍ طويلة الأمد

أو فرحٍ تغيَّب عن موعده

أو كندبةٍ زُرعت على حين فصل!

أيّار يدفعنا لنضربَ الموجَ في كوب قهوة

ثمّ نحتسي البحر بزبده وسفنه.

نعيد رمسيس الثاني دون تمثاله الساخر،

ربّما تقاعد وكسّر بلاطه الملكي لتظلّ السماء قيد العمل!

خلاف أمٍّ جاثية في السرير

جعلَتْنا ننجب توءمَين

توءم حبٍّ من ذكرٍ وأنثى

لا يحتوي قابيل وهابيل!

أتعلم يا ابن أمّي، ولو بدا غريباً، أنّني مكثتُ عشرَ شهور في الرحم؟ إنّني لأعجب كلما تذكّرت! هبطتُ عرنوسَ ذرة بغواً على أكمل وجه، نضجتُ على نار الحياة وباتت تهتك حبوبي، واحدةً تلوَ أخرى، ثمّ يبقى الجذر أخيراً، والبقايا، وأنتثر ضوءاً أصفر يقبع نهاية النفق.

أتركُ كلَّ شيء يضحك، وأدع الثغور مدهوشةً لا تُغلَق. أيّار يُحيي بصيصَ الأمل من جديد، نربّيه ونعلّمه كيف يعيش، فيغدو كهلاً معنا، لكنّنا بهذا نحطّم ساديّة الحياة، ونفتح للألوان باباً كي تبتهج.

كلّ عام وأنت بخير يا ابن أمّي، علّ هذا الربيع المُفاجئ يأتي كلّ أيّار، ولو بعد حين!

إنّني فرِح، ومردّ هذا تعرفه، رغم وقع الألم المُتشبِّث في عنق الذاكرة لا يُجتثُّ ظفرُه من الشريان الطويل، لكنّ مصلَ البهجة باغتني، ضربني في الوريد من هزيع اللّيل

حتى طلع الصبح على الخليقة، غيَّرَ مسارَ السائل الأحمر، كُلُّ ضخَّةٍ ترقص، ولو كان هذا مؤقتاً بيومك يا ابن أمّي، إلّا أنني راضٍ كلّ الرضا به.

ليلى ستعود، وتُرك الحوراء ستفتحُ الجدثَ عمّا قريب. كلّ الخيام ستتهدّم، والأهازيج تعلو وترنو وتدنو تصبُّ خمرَ الأقحوان في القلب.

ليبرد قلبك يا ملوَّح، اترك نردَ الأيّام يرمي بنفسه، لن يموت الشاه في رقعة الشطرنج، جنودُ الأمل يحموه بدائرةٍ لا تُكسَر، فاسبر كلّ الأغوار.

أسأل الله أن يكلأك برعايته، قفْ على باب إرم، استلّ الأملَ سيفاً وعمِّدْ كلّ شيء.

المُخلص لك دائماً: يوسف شرقاوي.

2 أيّار ٢٠١٨ _ الأريكة المحتضرة.

يوم مولدي يوم موتي! رصاصةٌ من

كلماتٍ جائرة!

صديقي العزيز يوسف.

شكراً لرسالتك الأخيرة يا أخي، للربيع الذي نشَرَتْه حروفُك.

خَجِلٌ منك أنا، لكن اسمح لي باسترداد الفرح، قلتُ لك في رسالةٍ مضت أنّ الربيع لحظة! لحظة فقط يا يوسف.

كأنّني أدركتُ بهذه الكلمات أنّ الموت قادمٌ في خريف أيّار، يا لتفاهة الأيّام يا ابن أمّي!

الكاتبُ يدركُ المعنى مسبقاً، يتنبّأ بالأحداث يا عزيز، ينزفُ الحبرَ على الورق وتأتي الأيّام لتُثبتَ ما كتب.

أخيراً أطلَقَتْ كلماتِها الجائرة هذه المرّة، قاومتُ، لكن خارتْ قواي، جثا القلبُ على ركبتيه وصاحَ بأعلى صوت: لا تقوليها. لكنّها أبتْ، أصرَّت على قتلي يوم مولدي.

كم مرّة يجب أن أكتبَ انكساراتي يا أخي؟ أم كم مرّة ستكتبني هي؟

النسيان لا يأتي بسهولة، هناك ذكرياتٌ متشبِّثة في زوايا العقل تَقتلُ بصمت.

أنا متعبٌ يا سيّدتي

من كلام الحبّ والغرام، الغزل والعشق والهيام، من هتافات الجموع أفرح، وأختنقُ في ساحات الحريّة الأبديّة أمامَ عينيّ السجّان، من نساءٍ تقترب منّي ومن كلامي تغار، من أصدقاءٍ فارقتُهم فوقَ الثرى وتحتَ الركام، من نظرةِ الوداع الأخيرة، من قبلةٍ ورصاصة هديّة الميلاد.

أتعلم يا يوسف، عندما أبحثُ عن كلماتها المُبعثَرة هنا وهناك يطرقُ قلبي أبوابَ السماء بسرعة، يناشدُ الرب: متى تأتي؟

متى تجعلها من نصيبي؟

إنني متعبٌ، متعبٌ جداً، حدّ البعد عن الحياة.

فكيف يكون لي جلَد الحصان في المعركة وأنا فاقدٌ سيفي؟ وأنا غمدٌ خالٍ من دونها؟

عجّل يا الله عجّل باللّقاء

لا قلبَ لي لأحتمل البعد

ولا يوجد في جسدي بئرٌ من الدموع.

أخاف أن تُذرَفَ كلّها في الغياب

ولا أجدُ دمعةً واحدةً أرشقها من عينيّ لحظة اللقاء.

أنا عبدُك وحبيبك يا إله الكون

أتوسّل إليك أن تسرعَ في قدومها

بعدد دقّات قلبي حين ألمح عينيها.

لا تقل لي كلاماً جميلاً يا ابن أمّي، شوارعُ مدينتنا حزينة، لا تحاول كثيراً، قلبي تركني وهاجر بعيداً.

مَن هؤلاء يهتمُّ بكِ؟

مَن كان ليمدَّ لكِ يده ويساعدك على النهوض من ذلك الوادي المظلم؟

كغيمةٍ في سمائي الصافية أمطرتِني حباً،

تكسَّرَتْ تحتَ قدميكِ كلُّ الدروع، ورحلتِ!

أتذكرين يا جائرة تلك الوردة التي أهديتُكِ إيّاها؟ كنتُ أسقيها يومياً من دمي كي تفوح حباً كلّما مررتِ بها.

لحظة إطفاء الشمعة في نهار هذا اليوم، تمنّيت عودتكِ لأعيش ما تبقّى لي من أيّام معك، لم أتمنَّ أن تعودي لتقتليني بكلمةٍ واحدة: سأرحل!

ستتركين غصةً أذكرها حتّى في لحظة الفرح الوحيدة.

كم تمنّيت أن تكونَ هديَّتُها كلمةَ عودة، لكنّها كانت كلمةَ فراق.

سامحْ ضعفي يا يوسف، فأنا عاشقٌ قد انتهى يوم ميلاده، برحيل الجائرة!

المُخلص لك: محمد المحمد.

3 أيّار ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، محمد المحمد.

الربيعُ كذبة يا ابن أمّي، قذر، سرابُ حياة، ضربُ الأرضِ بالبحث عنه موت، ونسيانُه موت، وأن نقفَ بين وساخته ونقائه الضائع المُتَّسخ، لا بدّ أن نُلطَّخ!

اللّغة حانقة، عيناي مُرهقتان مُنتفختان، لساني جاف، حلقي يُحشرج. منذ الواحدة صباحاً أُمارس مهنةَ التدريس، كانت لبضع ساعاتٍ مجاناً، أو لساعاتٍ كثر، الآن حتّى انتهيت، في السادسة صباحاً، وما أزالُ خارجَ المنزل المأجور أنتظرُ الطريق حتّى تدنو مني، لا طاقة لي أن أبحث عنها. النُّعاس يفتكُ بي، لكنّني لا أقوى على النوم، وها أنتَ تُفجعني بهذه الكلمات وكنتُ قد توقّعت العكس تماماً، فأرجعُ بي إلى الأمس، وأضربُ البحر، أشتمه. أمقتُ الحربَ واليختَ وقاربَ النّجاة اللّعين،

أركلُ العبراتِ من المُقَل، لكم يصعب على الإنسان أن يكذبَ على ذاته! لكم يشقّ على النفس أن تُخدع بنفسها!

كنتُ أقول: لو بعد حين. منذ ثلاثة أعوام أقولها، ومنذ أيّام حين تسلَّل إليّ اليقين الكاذب الفاجر بأنّ ليلاك عائدة، قلتُ: لا بدّ لحيني أن يحين، أقطع البحر، أسبح، أو أهرول، أو ربّما أحصلُ على جواز سفر للهروب من هنا وألتقي بها، وها هو تغريدُ عصفورٍ يصلني مثلَ زعيق غراب البَيْن، يا للشقاء!

أيّة مازوخيّة وأيّة ساديّة أعادتها الحياة وعادت لممارستها بكلّ طاقة ممكنة؟

لِمَ لا نفكّر؟ لمَ لا نرجع إلى كلّ أولئك الملاعين القدامى الذين فقدوا أنفسهم وقُتلوا أو قَتلوا في هذا السبيل الملعون؟ أي حبٍّ هذا يعيش داخلنا للخسارة؟ أيّة لهفة للوهم والوهن والغواية؟ أيّة لعنة؟

إذن، كلُّ شيء ضاعَ الآن، حتّى الربيع الكاذب الذي استمرَّ خمس دقائق فقط، راح دونما عودة.

ما من كلامٍ جميل يُقال، كلّ الحنق، شوارعُ المدينة مدنّسة ملطّخة بشرٍّ لا يمّحي، هو إعجاز الألم!

كنْ بخير، اكلأ نفسك، لا حاجة لكلِّ هذا، برِّدْ قلبك، لا تعصر الجمرَ بيدك كما فعلَ جدُّك، حوِّلْه ثلجاً وتنفّس الصعداء ما تبقّى من شهيق. كلُّ شيء زائل، والخطى الخضراء دنيئة، فلن ندين ولن نُدان، لا عنقاء ولا جدث، الخيلُ يقف في منتصف المضمار يشاهد، ولا يخوض، يا للحزن والشجن المرّ!

اسأل الله أن يكلأك برعايته، وتستفيق بذاكرةٍ نقيّة، إنّ عذابَ الذاكرة لأشدّ وقعاً من كلّ شيء! هو اللّعنة بذاتها! علّ ذاكرتك تشفى.

إنّ شيئاً لم يعد يستحق الذكر، بالفعل، الآن، كلُّ الأشياء إلى الهاوية.

أعودُ لأكتبَ إليك مع لدغة بنّ المساء، حيث الصراع.

أيّها العزيز، يجب أن أكتب، أهرب إلى هذا، وأهتك خصوصيّة حديثٍ دار بيني وبين صديقنا عماد، عماد إرم، لكنّني لا أستطيع إلّا أن أكتبه، لأحفظه، وليبني عشَّه في الذاكرة.

كنتُ قد اقتبست بيتَيْن من الشعر لعلي بن الجم يقول فيهما: "وارحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صَنَعا؟

فارقَ أحبابَه فما انتفعوا بالعيش من بَعدِهِ ولا انتفعا."

ومن هنا بدأ كل شيء، وأتأسّف إن كنتُ سأفشي خاصيّة الحوار مع عماد، لكنّني أتعمّد هذا، فقد وجدتُ فيه عديداً من الأجوبة.

كم يلزم كي يبقى الإنسان إنساناً؟

وقد عرفت بشكلٍ غير مباشر أنّه لا يلزم شيئاً، هي الفطرة، فطرة القلّة منا أو الكثرة، فطرة عماد على الأقل، من يفكّر ألف مرة كي ينصف ويعدل، وقال بأنّنا دائماً ندفن الجواهر، نمرض إن منحنا التقدير لأحد! نعاني من داءٍ في منح القيمة والقدر والحق!

حقيقة الأمر: إنّني مندفع لأكتب عنه، إنّ الوجود الذي صنعه بنفسه من رحم العدم يجب أن يُكتب، العدل والإنصاف، اللّهفة لمدِّ يد العون، ما أقلّ عماد يومنا هذا! ما أقلّه!

وفجأة، تسلّل إليّ شعورُ الغبطة، وأُنصِفْتُ ثلاث مرّات على يده، فرضيتُ كلّ الرضا، قال أنّ عصبَ الكتابة هو الإحساس، وتحدّثنا عن الدور الأربعة عشر، التجاهل والانحطاط الأدبيّ والانتفاخ الثقافيّ الكاذب مثل الورم... إلخ.

"التطبّع حقير، وما أصعب الغربة داخل الوطن! لكنّنا لا نقوى على التطبّع."

وقد أجبتُ أنّ هذا الأمر نبذٌ جهريّ صريح، والقناعة بالانتماء تُصارع وتصارع.

"احترام الذات أولويّة، وقد خرجنا لا نفقه من الله سوى أسماء ومن الدين عادات وفرائض شعائريّة."

لأجهرنّ بأنّ هذا الحديث يُغني ويسمن من جوع، يُشخِّص المرض بجملتين، ويجيب عن كلّ الأسئلة.

إنني فَرِحٌ هذا المساء، بلا سبب، وأرجع فأقول: ما أقلّ عماد يومنا هذا!

وعادَ الأمل أنّ داراً ما بعد الخامسة عشر أو أكثر ستُنصف، على وقع إنصافه.

أسأل الله أن يكلأك ويكلأه برعايته.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

صديقي يوسف، تشيخوف العرب القادم من الألم.

رسالتك الأخيرة قالت كلَّ شيء، اختصرتْ معاناةَ القلوب ببضع كلماتٍ تقطر صدقاً.

أيّار يا وجعي، يا وجعَ الكلمات المَنثورة. يوسف يا ابن الأرض، من أين أتيت؟ عندما قلتُ لك يا ابن أمّي لم أكن أعلم أنّ تفاصيلَ حياتك مطابقةٌ لأيّامي! اللّيل يفتكُ بي والربيعُ يهجرني، سأسافرُ للدولة الإسكندنافيّة وأقول لها: تباً للبحر الذي حملكِ من أمام العزيز، تباً للحرب، البعد، الشوق، الألم، الهجر والهجرة، الغياب، للقنابل، وللفايكنغ!

لم يكن لكِ من اسمك نصيب يا فاطرة القلب، وكان لها كلّ النصيب من قلبِ الملوّح بها!

ألم أقل لكَ أنّ الربيعَ لحظة؟ هذا ردّي على رسالتكَ التي قلتَ بها: ستكتبُ لكَ فهي ابنة قلبك.

يا ابن أمّي قد أتى الربيع بكلماتٍ أعجز عن الردّ عليها، كم أتوق فرحاً لابنة قلمك! منذ الصرخة الأولى وأنا أعشق أيّار، أراهنُ عليه بالنرد، بالحبّ، وبالسهر.

كيف لي أن أكرهَ هذا الشهر وكلّ يومٍ فيه ذكرى جميلة تجعلُ القلبَ ينزف ورداً مبتسماً؟ حينما غرَّدَتْ لي: أحبّك. في الخامس منه.

عادَ الربيعُ برسالةٍ من جائرة قلبي، قد أتى الكروان على أعتاب العين، أنتظرُ تغريدَه يا عزيز القلب.

من ثمّ انتهى الربيعُ السريع، تلطَّخت الروحُ بنزف الفؤاد، واختفى.

يا للهولوكوست أمام محرقة القلوب!

كم تليقُ بك مهنة التدريس! ويا لحظّ الطلاب الذين ينهلون من بعضِ ما لديك! سامحْ كلماتي يا أخي، رسالةُ الموت قتلتْ كلَّ مَن حضر مأدبة عيد مولدي!

أحيَتْني يومَ عيدي وقَتَلَتْني يومَ عيدي. منذ عامٍ مضى سمعتُ أوّل "أحبّك" وفي ذكرى الحب سمعتُ أوّل "لنفترق"!

هذا اليوم يا أخي كان يوم الجائرة، صبرَتْ أياماً على نار قلبي لتقولها، والآن بعدَ الحريق الذي أشعله الانتظار، عادتْ لتنثرَ رمادي.

لله درّك يا روحاً على بعد الحبيب كيف تصبرين؟ هلكَ فؤادي بغيابك، مالكِ ومال قلبي الذي أحبّك؟ حالَ المكانُ بيننا ولم يعدْ في اللبِّ لا حياة ولا نبض.

سرقوكِ من جسدي ومن ولادةِ ضلعٍ يعتصرُ الألم.

قضيتُ العمرَ يا يوسف أنتظر مبرراً لأعيش حياةً عبثَ سوادُها بجسدي سنيناً، إلى أن أتتْ ورتَّبتْ كلَّ شيءٍ بداخلي، ثمّ غادرت ذات مساء لتزيد عمري وجعاً. كانتْ بدايتُنا فرحاً وما كان للفرح معها نهايات يا ابن أمّي.

تهافتَ الألم من كلّ حدبٍ وصوب على مدينةٍ كان العشقُ مفتاحَها، استدْرَجَتْها يدُ الغدر للاحتضار.

كم كانت اللّيالي سعيدة لو أنّه اكتملَ القمر بين ذراعينا!

جعَلَتْني قوياً بها وكانتْ أضعفَ من نقطةٍ بيضاء في بحرِ دماء، أصغرَ من لحظةِ فرحٍ في حياةٍ مليئة بالغبار، أقلَّ من قطرةِ ماءٍ في صحراء مليئة بالرمال.

كنتُ أَرى بها وجهَ روما، عطرَ باريس، أسطورةَ اليونان في الجمال.

احتلَّتْ الواقعَ والخيال، غرَّدَتْ وحيدةً على الأشجار، كانت تعويذةً شرقية باختصار.

أُحاول النهوض من القبر الذي دفَنَتْني به بليلةِ عشقٍ سريعة، بنظرةٍ غريبة، بموتٍ شرِسٍ سريع،

دون أدنى تعب، وبمساعدة البنِّ الراقد بين رموشها.

كان يوماً امتلأتْ به الأرضُ بحبّات المطر الوافرة بالطين المُخيف، السماء تهطل حجارةً على المارّة، ما شعرتُ في هذه اللحظة سوى بوجعٍ مخيف يسكن قلبي وغصّة في العنق كأنّه اللّقاء الأوّل في باريس.

ليتها عادَتْ يا عزيز للعاشقين القدامى، ليتها قرأَتْ ماذا حلَّ بجدّي الأوّل قيس، وكيف كانت ليلى بغيابه، كيف قتلَ الشوقُ لُبنى ببعدِ ابن ذريح، وهو من ابتعدَ عنها.

إنّني متعبٌ جداً، أكتبُ لكَ هذه الرسالة في دقائق معدودة، لقد عدتُ من عند أصدقائي في الساعة الواحدة بعد الظهر -أقاموا لي حفلةً، قد أرفقتُ لك الصور مع هذه الرسالة- ونمتُ كالقتيل، أم لماذا "كَال"؟ أنا كذلك، لم يستطيعوا اقتلاعَها من رأسي، على الرغم من كلّ أجواء الفرح التي كانت.

احتضرتُ بصمتٍ بوجود الجميع وقضيتُ نحبي على فراشي، خمس ساعات يا ابن أمّي لم أحلم بشيء، أبداً.

استيقظتُ كالمجنون أكتب لك، بجانبي قهوتي المرّة وعددٌ لا يُحصى من السجائر.

كلُّ شيءٍ إلى الهاوية الآن.

بالنسبة لما دارَ بينك وبين صديقنا عماد، وعلى الرغم من قلّة اللّقاء بيني وبينه، إلّا أنني أُثني على كلامك، ما أقلّ عماد في يومنا هذا!

"الفقرُ في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن"

لم يقصد الماغوط هنا الشيءَ المادّي من الفقر أو الغنى، كان يقصد كلَّ الذي تحدّثتما عنه.

الانحطاط الأدبي والانتفاخ الثقافيّ الكاذب... إلخ.

الكتابةُ من رحم الألم يا عزيز، والإحساسُ ملتصقٌ بها كالمشيمة.

الإنسان يبقى إنساناً، لكن كم يلزم من وقتٍ لمن أضاعوا الإنسانيّة أن يجدوها من جديد؟

يا جائرة...

الشوقُ يمزِّق كبدي عشقاً والروحُ تائهةٌ فوقَ سماءِ منزلك، تطلبُ الصفحَ للقاءٍ قريب، العينان تنسجان ضفائرَ الخدّين، تنثران اللؤلؤَ على أعتابِ الصدر، وتمطران القلبَ حبَّاً.

أتوقُ لحضنٍ يجمعُنا في منزل عشقِنا السرمدي.

هنا أذرف الذكرى أمام عينيك.

المُخلص لك: محمد المحمد.

7 أيّار ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

إنني واقفٌ في المنتصف، في صلب الحيرة، فإمّا لم نكابد شيئاً بعد، أو كابدنا كلَّ شيء!

قرأتُ تخبّطك بينما كان الفجرُ يبزغ من الأفق البعيد، انقبضَ صدري وارتعشت، وجعلتُ أفكّر: كيف سأكتب إليك؟ كيف سيكون ردّي على وقع ألمك؟

وحضرني بعضٌ ممّا قاله تشيخوف، أنَّ المفكّر حين ينضج، يكرهُ حياتَه، أو يمقتُ العالمَ المشؤوم! لا أذكر كيف قالها على وجه الدقّة، لكنّ يقيناً يعبث من بعيد، حقيقةً دامية تجثو على الشريان السباتي، بين العقل والنقل، التجريد والتمهيد والتخبّل والقناعة والشكّ، ولئن حملنا الرسالة دون الجبال، وتقبّلنا الأمانة العليا مع المقوّمات الممنوحة كي نستمر، فلا شكّ أنّ تحقيقَ السعادة يقفُ على شفا الضياء المُنتظَر، فأيّ إنسان لا يبحث عن سعادته وسلامته أيّها العزيز؟ إنّها لفطرة! وما الشقاء إلّا وليد الجهل، ابن فجوةٍ ما تفجّرت على حين غرة، ولو أنني أتفلسف، فلا بأس! إذ يجب أن يُكتب هذا:

نحمل فطرةً وقبلنا الأمانة والرسالة، سُخِّر لنا الكون، وترفّعنا عن الملائكة، ودنونا عن الحيوان، وما الاختيار إلّا لحظة يقين بأن نوازي بين العقل والدنو! إنني أعتقد، وقد أجزم، أنّ هذا كلّ شيء أيّها العزيز!

أمّا الآن، فعلينا أن نرجعَ حيث النزيف، أو هو دم الصبر أيّها العزيز! بيد أنه كذلك. يُحتَّم عليه أن يكون هكذا، وكلُّ شيء عائد، قبل الزوال، قبل الوقوع في الندم. يجبُ علينا أن نعلم هذا، أنّ الندمَ لا يُقدِّم ولا يؤخّر بعد الوقوع، وهو لأشدّ الأشياء مرارة في هذه الحياة!

أقول منذ أعوام ولو كذباً: لو بعد حين!

وأيّ حينٍ هذا الذي لن يجرؤ أن يأتي؟

دعني أخبرك قبل أن أنسى، فأنتَ تعرف مشكلتي مع الذاكرة القريبة، ولن تصدّق لو كتبت الآن أنني نسيت ما نويت قوله! كانت جملة الحشو هذه صفيقة، إنني بارد لكنني فَرِح، بلا سبب إلّا القناعة، لا بدّ أن نغوصَ في الحياة ونرجع للمردّ الأول، وانغمستُ كثيراً في هذا، فمثلاً: أشرب الليمون الآن، لم أحتسِ شاياً بارداً اليوم، حتّى قهوة قدوم الصباح لم تقطع فناجينها الأربعة مثل كلّ يوم! أتعلم ما معنى هذا؟ أنني لستُ أنا! أنني غيّرت طقساً مهماً مثل الصباح، ربّما كان هذا ذنباً، أظنّها المرّة الأخيرة.

والبارحة، شرعتُ أكتب في المجموعة القصصيّة من جديد، أنظّمها بتعديلات طفيفة وأضيف قصّتين جديدتين، وبعد ساعتين من العمل، حُذِف الملف للأسف، فغضبت، لكنني أضحك الآن، إذ لا بأس في الإعادة! فالوقت كافٍ، كافٍ لكلّ شيء، حتى لصنع السعادة، وقطع الشك باليقين، واستلال النصل، فهي ثلاث مراحل نسيت أسماءها الدقيقة لكنني سأذكرها بصياغة مختلفة:

المرحلة الأولى: وصول البلاغ، وعلينا أن نعود.

المرحلة الثانية: توبيخ، شقاء مرير، وعلينا أن نستدرك ونرجع.

أما الثالثة: فهي عطاء مديد، وعلينا أن نشكر ثمّ نرجع حيث اليقين!

أرأيتَ إذن كم أنّ الشقاء جهل؟

أمّا عن الكلام الذي قلته آنفاً في ختام رسالتك، عن الحال الشامل، فهو جهل أيضاً، تفرقة وتقليد، ونردّ هذا إلى "العدوّ" لكننا أعداء أنفسنا، فللعدوّ أن يغدر، وإثر غبائنا نتذرّع بفعله، فنختلف مجدداً، ونتفرّق، ونحن الذين لو اتّحدّوا لما بقي فقيرٌ أو جائع أو كارثة! لكنّه الجهل، بئس الجهل!

أمّا الآن، فكلُّ شيء سيعود قبل الوقوع في مصيدة الندم، وليس لنا سوى الإدراك أيّها العزيز، ليس لنا سواه!

برِّدْ قلبَك ليبردَ قلبُ جدّك، وعانقْ ذاتك، قبِّلْها إن شئت، فالوجودُ هنا كما العدم، والسعادة كما الحزن والألم، نحن نصنعهم، ونخلقُ القصص، ونُنشئ الخيال، نهربُ من صلب تراجيديا الواقع على الرغم من كوننا نقوى أن نحوّلها كما فعل أرسطو.

وفي النهاية أيّها العزيز، كما يفعل الطلّاب الصغار حين تذكر لهم معلّمة الفلسفة هذا الاسم، أقول لك: من أين؟

أسأل الله أن يكلأك برعايته.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

١١ أيّار ٢٠١٨ _ المنفى.

صديقي العزيز يوسف.

تأخَّرتُ في الردّ على رسالتك، كنتُ في غياهب الحياة، على حافّة الهاوية، أكتبُ عن كلِّ شيء وإلى كلِّ شيء.

أنتَ تقف في المنتصف، في صلب الحيرة، أمّا أنا على شفا حفرة يا ابن أمّي، لا أحد يعلمُ ما بي إلّا أنتَ وهي.

كان تخبطاً مؤلماً، بزغ الفجر لديكَ من الأفق البعيد في تلك اللّيلة!

كنتُ أنا في المجرّة البعيدة، فجري لم يبزغْ بعد، وكما قلتَ أنت:

إنّ السعادة لفطرة.

وكم اختصرتَ يا ابن أمّي في كلامك:

"نحمل فطرةً وقبلنا الأمانة والرسالة، سُخِّر لنا الكون، وترفّعنا عن الملائكة، ودنونا عن الحيوان، وما الاختيار إلّا لحظة يقين بأن نوازي بين العقل والدنو."

نعم، هذا كلّ شيء يا عزيز.

كم كنتُ أردّد ما قاله غسّان كنفاني:

"متى سترجعين؟ متى ستكتبين لي حقاً؟ متى ستشعرين أنّني أستحقك؟ إنني انتظرت، وأنتظر، وأظلّ أقول لك: خذيني تحت عينيك."

كتبتُ لها في الرسالة قبل الأخيرة:

"كنتُ ألاحظ كلّ شيء في شخصيّتك، وتعلمين أنني أحببتك قبلَ أن أراك، أنا خُلقت للمخاطرة، ولا أحد يعلم سواك.

للمصادفة منذ سنة قلت لك: لمّا بشوفك عم تناقشي بعشق سماكِ، لا تتخبّي ورا أصبعتك، بحبّك لأني بحب عقلك!

وكم أحببت تلك الريشة وكتبتُ بها ملايين الكلمات، لكنّها كانت غلطة الشاطر التي لم تُغتفر بمئات الأطنان من الاعتذارات!

لم يكن للنهايات مكانٌ بيننا، هكذا قلنا عند منتصف السهر بحضور القمر وعينيكِ.

أحبّك يا جائرة وتعلمين عندما أقولها لكِ ماذا تعني!

النارُ في كبدك والثلجُ في قلبي، متى اللقاء؟"

لكنّها أخذتني إلى المحيط، حيث الأسماك المتوحشة، الغرق واللّيل الحالك.

أتذكّر في هذه اللحظة قول الكاتب والناقد صمويل بيكيت من مسرحيّته، في انتظار غودو:

"_ لا تلمسني! لا تسألني شيئاً، لا تقل لي شيئاً، ابق معي فقط.

- وهل تركتك مرة واحدة؟

- تركتني أرحل."

كنتُ بصحةٍ جيدة، لا أعاني سوى من وجعٍ في القلب وقليلٍ من ألم الروح ونزفٍ في الذاكرة وتخثرٍ في الكلمات، فنزفتُ على الورق وعلى الأريكة.

أجدني أهربُ من نفسي إلى الحشود، أخافُ أن أختلي بي، وكأنّني أجلد ذاتي جلداً مؤلماً يا عزيز!

لكن بعد كلّ حرفٍ أكتبه؛ أتقوقعُ على نفسي، أحضن ما تبقّى منّي، ألملمُ فتات قلبي وأغمضُ عينيّ.

لقد حانَ الوقتُ للعزلةِ المُنقذة، حان الوقت!

سأصفعُ قلبي إلى أن يعودَ لحجمه الطبيعيّ، كطفلٍ يرتمي في زاويةِ صدري دون شعور.

وكما قال جبران خليل جبران:

"أنا لا أعرف الحقيقة المُجرّدة ولكنّي أركع متواضعاً أمام جهلي وفي هذا فخري وأجري."

أشربُ قهوتي الثالثة هذا اليوم، أستمع إلى ريتّا، والسجائر لا تُعد، هل يأتي يا يوسف ذلك الحين بعد لو؟

أنتظرُكَ بفارغ الصبر، أنتظرُها بفارغ الشوق، ولا أدري متى ينتهي الانتظار.

المُخلص لك دائماً: محمد المحمد.

١٨ أيار ٢٠١٨ _ دمشق.

أيّها العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفها الجارح المُحِب،

محمد المحمد.

مضى وقتٌ ليس بقصير ولم أكتبْ لك، وحتّى الآن لا أعرف كيف أكتب، لا أستطيع، كلّما اقتربتُ ابتعدتِ الطريق، كلّما خطوتُ احترقتِ السكّة، تنفجرُ العجلات، رغم إنّي قريب.

قد سألتُك آنفاً: هل كابدنا كلَّ شيء؟

أيُّ ضنكٍ هو هذا؟

يا له من شعور! صوتُ الإصرار يخرجُ من اصطكاك الأسنان، وما إن اندفعَ الإنسان، ما إن عزم، يبردُ فجأة، يخمل، يتخبّل، ويعتمله انفصامٌ حاد، يقصُرُ عاجُه، يغدو مريؤه حبلاً صوفياً كثاً، فيسعلُ قفصَه الصدريّ، يحملُ الصخرةَ الكبيرة على عموده، يرمي بالصولجان.

كتبتُ إلى الصديقة رشا المقداد، القاصّة الرائعة، أردُّ على مكتوبها الأخير، وأحاول ردَّ الحزن إلى حيّزه الأكبر: "سهمُ أفروديت لا يقصر، لا يجسرُ أن يضمحل، فيرتطمُ رأسُه الحادّ في صلب السباتي، ويمتدُّ بؤساً وحنقاً وتنكيلاً، لسنا هرقل لنقتلَ ثعابين الألم ونخنقهم. تنطقُ أثينا كثيراً، عبثاً، فالوحوشُ هم الوحوش، ومثلما قال إنسانٌ يشحذ حبراً: ما الحياة إلّا كتلة قاذورات تشعّ ضياءً أسود!

قيثارتُنا تتقطّع قبل أن تعزفَ لحناً كاذباً، هايدز وحده يربح، وحده يكسبُ المعركة، الصولجان ينزف، الأضحية تكون قبلَ الحرب، في الحرب، وبعد الحرب.

فكيف يستبيحُ الألم جمامَ السعد والعاج قد غدا شوكاً؟ كيف يمضي من يقف على حافّة الهاوية؟

للعدم وجوده في الأسفل، لكننا "نحن فلا تقولي ما نقول."

الشقاءُ معدٍ، وحينما ترى الحياةُ إنساناً معصوب العينين يمدّ يديه عوناً، تجمعه مع الاثنين وتمارس فاشستيّتها بشراهة، لن تجدي الإلياذة نفعاً الآن، ولا السؤال الذي طرحتُه آنفاً في كلّ قطعة: أين الربيع من فصولك؟ يا حياة!

لم نسرقْ رغيفاً لنُحكم، لكنّها آخر الأحلام، نراها تقضي نحبها، فنمضي."

لكنّها لم تقنع، وحاولَتْ مجدداً، والآن قبيل بزوغ الفجر بفينة، حبلُ الأمل ينقطع، مثل سرابٍ لم يجسرْ أن يبقى أمداً طويلاً، واضطرابٌ عنيف -هكذا يسمّيه الطب النفسي- يجري بي، أقطعُ شعري بلا هوادة ودونما دراية، أرى الخصال تتقطّع، فترتجفُ يدي، أسكتُّ هذا التخبّط أخيراً.

ثلاثمئة دقيقة، حاولت أن أكتب، مزّقت أوراقاً كثيرة، لم أضف شيئاً.

هل هذي اللّيلة قمراء؟ سوداء، ظلماء؟

إنّ أحداً لا يعرف، والإدراك لا يأتي إلّا قبل النَفَس الأخير بثوانٍ قليلة.

كان يمكن ألّا يحدث كلُّ هذا لو كنّا علب كونسروة، لكنّ نسيج العنكبوت يُحتِّم علينا الخوضَ في ظلّ التجربة لتأخذَ قصّة الحبّ منحاها في تاريخ أنفسنا وتأْريخنا، بين الظلم واستعذاب الألم، نقف، للملوَّح الجدِّ أن يقرأ ما يكتبُه حفيده، للقصّة أن تتعمَّق وتدخلَ غياهب الحياة هاجساً.

البسيطةُ تنتظر ذلك التبسّم الشقيّ، بين هدأة الكروان وسكون الفرح المُبهم.

كلّما سُئلت: أما زال الانتظار يقفُ بين الحفيد وليلاه؟

أُجيب: هما الوترُ الخامسُ للكمان، القوسُ عنقهما، يصنعان من الأشجانِ لنا أمداً طويلاً.

ويأخذُ الكروان يصدح: فُكّي السوادَ عنكِ، علّ الكمنجة تضمِّدُك.

فتسمعها، تحشرجُ الأوتار نغماً صامتاً، وتحشرجُ أنت: بل أنا العازفُ المُحِبّ، أُعانقُ الناسَ نغماتٍ وأخفّف وطْأةَ الألم ووقْعَه عليكِ.

فتنتحب لبنى، وتسأل: ما بي أنا؟

_ لا شيء بكِ، أنتِ ميلينا البعيدة عن الجثّة الهامدة، أو ليلى.

_ هل ماتَ قيس؟

_ بل هوَ النغمُ الشجيّ حينَ يخرجُ من هنا.

_ أنا هنا إذن، حتّى نهايةِ الخليقة، ألن تتعب؟

_ لا تتعب الكمنجة، كوني ريتّا ليكونَ الكمانُ درويشَك.

تتناولان عبقَ القهوة سراً كلّ يوم، رشفةٌ تصرخ: أحبكَ.

ورشفةٌ تصدح: أحبكِ.

نحن من بِتْنا نخاف، هذا الألم عذبٌ، رطب.

لذا، كلُّ شيءٍ عائد، الأسطورة تقول، المعمورة تقول، حتّى الجوى.

سيغدو المنفى موطناً عمّا قليل، ليلى تقول، قيسٌ يقول.

أمّا أنا: البائس المُنتظِر مثلكما، ينخرني اليقين، ردّي الشقاء يا ليلاه، ودعي الأحلام تسكننا.

كان يمكن ألّا يحدث كلّ هذا، لكنّها الحياة، تصفع وتُقبِّل.

ننتظر، ونحبّ، ونفتقد، ويمكن لكلّ شيء أن يصبحَ أكثر بساطةً ويسراً، لكنّه الوقت، قاتلٌ وعقيم، وسيمضي حتّى نفرح.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

٢١ أيّار 2018_ دمشق.

أيّها العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب،

محمد المحمد.

يا للبؤس! يا للبؤس!

منذ متى افتُتِحَ مكتوبٌ بهذا؟ إنّها لرغبة عقيمة ونشوة مفصومة، يا للذعر! إنّه الفزعُ بعينه، الجورُ النهائيّ قبلَ العوز الأخير!

عليّ أن أكتب، أخبرتُك في رسالتي الأخيرة عن كلّ شيء، والآن، كلُّ تلك المبائس تتفاقم دون هوادة، تهتكُ نفسها وتفضّها، تصطفُّ بشكل عاموديّ، أو أفقيّ، أو دائريّ! تأخذُ الشكلَ المُريح قبلَ هجومها، وتبدأ السهامُ بضرب الأرض، منجنيقُ الإثم يرمي جمراتِه، براثنُ الشيطان تصدح وتلتهب، هو الإنسان بعينه أيّها العزيز، مسٌّ ما يجتاحُ المعمورة وينتحلُ شخصيّة الخليقة بأسرها!

إنّني عند باب هايدز الروائيّ، كنتُ سأُقتَل لو لم يرتفعْ صدري ويوقظني في اللّحظة الأخيرة، كانوا يمزّقون أظافري ويخلعونها عن الجلد، يرمونني على حديدٍ منصهر، ويلحقون بي في طريق مُعتمة وعرة.

يحاولون انتزاعَ كلّ ما يُنتزع مني، دعني أخبرك بكلّ شيء، هي الشخصيّة التي لم أصفْها في الرواية -عنونتها بالنّاجيان- جعلتُها ظالمةً غامضة ثمّ قتلتها، إنّني أعرف ذلك الرجل جداً، جاءني في الحلم أوّل مرّة بهيئة سائق، أقلَّني مُنتصف الطريق

المُعتمة ثمّ لحقني، وظللتُ أركض، ثمّ ظهرَتِ الشخصيّات الأخرى التي كتبتُها في العمل المسرحيّ "أين الربيع؟" القاضي ورئيس المجلس ونائبه والعضو، أمسكوني، وراحوا يرمونني من حائطٍ إلى آخر، كنتُ أتألّم، وحين استنجدتُ بالشخصيّة الروائيّة البريئة، ذلك الطفل الذي لا أستطيع أن أكتبَ عنه شيئاً، وناشدتُ الفتاةَ الصغيرة التي أحبَّتْه، وأيضاً لا أقوى أن أكتبَ عنها، سمّيتها سيلينا في الرواية، حين ناشدتهما،

صُفِقَ الباب الذي يحجبهما، وصار الطفل المجهول -إذ لا يملك اسماً في العمل- يومئ ويشيرُ إلى أصابعه، ويخبرني أنّ أظافري ستُنزع عن لحمي، وحينما حاولَتِ الشخصيّات فعل هذا، استيقظت، يا للفزع! يا للرعب!

توقّفت عن الكتابة الآن، ويخيّل إليّ أنهم يعرفونني تماماً، سيزورونني اللّيلة أيضاً، هذا لا فرار منه أيّها العزيز، أتساءل: هل حلمَ الكتّاب سابقاً بهذه الأوهام؟ وبحثتُ كثيراً، كلّ الإجابات: لا. إذن فالمكمن بي أنا، وحينما أعودُ للكتابة، وهجٌ حارّ يعتملني من صدغي لأخمصي، وتقفُ الفتاة الصغيرة أمامي تبكي، ويحدِّق بي هيبلونوف المسرحيّ ويصرخ: لِمَ حوّلتني لشريرٍ وقاتل؟ ويقف قبلونوف يتأمّلني، وبدا أنّه يشكرني لأنني قلبتُ الأداور بينهما.

إنّ كلّ الشخصيّات تعيش بي، تصنعُ عالمَها في رأسي وتنخره، توخزه، وترغمه على تجرّع مصل الفصام، فأبكي، ثم أمسّد شعري وأنزعه عن جلده، وأقهقه، وفجأة، فجأة فقط، أغنّي، كلّ هذا شاق ومرهق أيّها العزيز. المنامات تتكرّر، وعلى الرغم من

كلّ هذا، على الرغم من كلّ هذه الوقاحة والسذاجة، لم يُنشر شيءٌ بعد، وإنني أجزم أنّ "بعد" هذه، قالها أخرق، لم تدعه عصارتُه يعيش أمداً طويلاً، فتذرّع بالموت، تذرّع بالشقاء، وسوَّغَ التعب وردّه إلى الحق.

سيقتلونني اليوم في الحلم، هدّدني القاضي البارحة، حتّى الشخصيّات البريئة، مهَّدَتْ لي الأمر، فامتنعتُ عن الكتابة حالياً، إنّني لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

أتركك الآن أيها العزيز، أسأل الله أن يكلأك برعايته.

المُخلص دائماً: يوسف شرقاوي.

٢٥ أيّار ٢٠١٨ _ ألمانيا.

صديقي يوسف.

بعدما كسرتُ القلم، أكتبُ لك بشظيّة قلبٍ وحبرٍ أحمر.

منذ يومين كنتُ أتساءل عن وجود ملجأ للقلوب المُحطّمة، حينها ردَّ عليّ صديقُنا كمال قصّاب برسالةٍ أنعشتْ قلمي المكسور، فكتبتُ له:

"كان تساؤلاً أبحثُ له منذ الأزل عن إجابة، منذ سمعت: حتّى أنت يا بروتس!

لم يكن يوليوس خائناً يا كمال، فقد صنعَ المجدَ للقلوب وتحدَّث باسمها جمعياً.

لكن بروتس خان روما بقتله لأجلها وحطَّم القلوب، وتطايرَتِ الشظايا على وجوه الحالمين، فليمتْ قيصر صاحَ يوليوس، وأقول من بعده: فلتعشْ روما محطَّمةً يا أخي."

على قدر الحبّ ينكسرُ القلب! الصدرُ يتألّم يومياً من أثر الشظيّة، فتخرج حروفُ اسمها شهقاتٍ متتالية. نوباتُ الشوق كصداعٍ نصفيّ تقسم الرأس يا أخي -حتّى أنتِ يا جائرة!- يا من كنتِ سنداً أتّكئ على حبّك في شوارع الغربة وأزقّة المرض المُلازم لهذا الجسد.

فنجانُ قهوتي أصبح كالصبّار على فراقها يا عزيز.

سأركضُ إلى اللانهاية، أتمسّك بخيالِ غيمة، بخصلةِ شعرٍ من الشمس، هناك تكمنُ الأحلامُ على ضِفاف المجرّة البعيدة.

الحبُّ لا يعرف الرحمة يا يوسف والقلوبُ المكسورة لا مأوى لها، لن تُجبَر بسهولة فالقلب رقيقٌ حدَّ السيف.

ما رأيك أنت؟ هل وجدتَ ملجأ لفؤادك يا ابن أمّي؟

كتبتُ لصديقنا هُمام المر في الصباح أنّ قلبي لا يتّسع إلّاها.

تحطّمت القلوب وأصبحتِ الكبرياءُ ملحدةً في زمن كثُرَتْ فيه الشظايا.

لقد أرسلَ لي بالأمس يحثّني على النسيان، فأجبتُه:

"صديقي، وصلتني رسالتك وأنا عالقٌ بين يدي الغيابين، ليس للحبِّ معنى بعدَ الانتهاءِ من معركةِ الصبر. أيّار لا ولن ينتهي! كيفَ لي أن أدفنَ قلبي وأبقى على قيد الحياة؟

كيف لكَ أن تنتظرَ منّي رداً على رسالتك إن دفنتُ الجائرة؟

اختفاءُ الحبيب هو موتٌ بضربةٍ قاضية، رصاصةٌ على حين غرة، والذكرياتُ هي بقايا الحبيب. التخبّط بها احتضار، موتٌ بطيء.

سأعيشُ بها لكي أكتبَ لي، لك، ليوسف وللقرّاء أكثر وقتٍ ممكن.

أكتب لك على أنغام "تناقضات" رائعة نزار قبّاني بصوت كاظم الساهر. أعيشُ بها وتفتكُ بي.

يا جائرة، يا بقايا الأيّام الجميلة، زهرةَ الربيع، عيونَ السماء، ضوءَ الليل.

وما بين حبٍّ وحبّ، أحبُّكِ أنت.

لا تطلبْ يا صديقي ما لا طاقة لي به. النسيانُ غريبٌ عنّي، وأيّار كما أسلفتُ لك لن ينتهي.

حين تسمعُ هذه القصيدة، ستدركُ ما أعنيه.

قد عانيتُ المرضَ والوحدة في الغربة وقضيتُ ليالٍ كثيرة على الفراش الأبيض في مشافي ألمانيا يا عزيز.

يا لتفاهة الألم! لم يدركْ أنّ الذكرى مؤلمة وتسبّب صداعاً نصفياً! والملاحم التراجيدية تُقطّعك إرباً وتضيعُ منك الأيّام."

قلتُ له يا يوسف أنّ غيابكَ مؤلمٌ لنا جميعاً، لم أرَ أحداً بعمرك يملك هذا الشغف، وهذه الكلمات بحجم المجرّات، وكيف ذهبت لدراستك، مسرحيّتك، للنسيان مضيتَ تصنعُ التاريخ، وأخبرته بأمر رسالتك لي حيث أخبرْتَني أنّك على ما يرام.

هناك حيث الراءُ استوطنَتْ في شوارع حيّنا القديم، تحتَ السماء الحمراء، فوقَ الأصدقاء، بين فكَّي الحاء والباء، من يكونُ على ما يرام يا عزيز؟

من الغرب الألماني على ضفاف نهر الراين.

صديقك وسندك: محمد المحمد.

٣ حزيران ٢٠١٨ _ دمشق.

أيّها العزيز... محمد المحمد.

الشمسُ تبزغُ في عين اللّيل، القمرُ يمسكُ كبدَ السماء ويقضمه غزلاً وبنفسج.

يمكنُ لشمسٍ وقمر أن يلتقيا -من جديد- على أنفاس الكروان.

العاجُ يتبسّم بثغرٍ مفتوحٍ على مصراعيه، يقفُ على شفا السراب، يطرده، ويغتسل، ثمّ ينتشي.

كلُّ الأشياء ترقصُ على لحنٍ تغيَّرَت كلماتُه: (سَمَحَ الزّمان يا جميل).

لكنّكما لستما على شاطئ النيل، وهذا لن يغيِّرَ شيئاً، فكلُّ البحار والسفن والأشرعة باتَتْ تلتفُّ حولَ الحب وتقطعُ الطريق.

شمسُ اللّيل تداعبُ ريشَ عصفورٍ يُغرِّد، بأوج فرحها، وربيعها، وزينتها.

السماء تتبرّج. غيمٌ من اللّهفة والألفة يتآزر ليندى دموعَ فرحِه.

كلُّ شيء بغبطةٍ تامّة، أشدّ الغبطة!

يا قصّة الربيع!

كلُّ الخليقة تتعانقُ في عينيّ وتتمسّك بأهدابي، وتتساقط، وترجع، ثمّ تمضي إلى أحلامها الورديّة المُحقَّقة.

ها قد قتلتما الشرورَ المتكدّسة وقطعتما المسافةَ بين الكؤوس.

صباحُ الخير ... ليلُ الخير!

يا قطعتا فرحٍ وسرور، أنتَ وهي!

اليمامُ، والحمام

والأيّام... كلُّ شيء... كلُّ شيء

يرقصُ ويتعانق، كلُّ شيء مضيء الآن!

حتّى أضواء البلديّة تتراقص!

حدثَ كلُّ شيءٍ وانقضى دونما عودة، العنكبوت يسمعُ أنغامَ التانغو ويطبطبُ على نسيجه، والبجعُ يستحمُّ بالبحيرة، والبومُ يلملمُ ريشَه ويغيّر عبوسه، الغرابُ يقِظٌ إلى الأبد والوطواط، كلّهم، كلّهم، في يقظةٍ تامّة للفرح!

الملوَّح الأكبر يغنّي، عادتْ ليلى الحفيدة، وعادَ التبسّم الشقيّ، لم يعد الظلّ مبهماً!

وإن سُئلت: أما زالَ الانتظارُ يقفُ بين الحفيد وليلاه؟

أُجيب: هما كلُّ أوتار الكمنجة، وحنجرة الكروان،

يصنعان من الفرح لنا عمراً وحكاية.

ها قد رحلَ السواد، وضُمِّدنا.

للقهوة طعمٌ آخر الآن، رشفةٌ تصرخ: أحبكَ.

ورشفةٌ تصدح: أحبكِ.

والمنفى صار موطناً بالفعل، ورجعَ كلّ شيء.

يا أبناءَ الحياة والحبّ والجوى، ها هو السعد يقطننا، فلا تسمحا له مرّة أخرى، أن يبتعد.

الودُّ لا يفسد للكون قضيّة، بالفعل.

المُخلص: يوسف شرقاوي.

١٣ حزيران ٢٠١٨ _ ألمانيا، على ضفاف نهر الراين.

يوسف العزيز.

هربَتْ منّي الكلمات لفترةٍ طويلة يا أخي، أتيتُ بردٍّ متأخّر على رسالة الثالث والعشرين من أيّار، من غياهب الروح وبينَ أحضان العزلةِ الشقيّة أكتبُ لك.

حتّى علب الكونسروة لها تاريخُ انتهاءِ الصلاحيّة، تُرمى على قارعةِ الطريق. سيحدث، كانَ سيحدثُ كلُّ هذا يا عزيز؛ فالقلبُ محفوظٌ داخلَ جدران القدر، والحبُّ باتَ ينتهي قبلَ أن يبدأ.

العنكبوتُ يَبني بيتَه، تأتي الأسطورة لترمي كلَّ العذابات على جدران المنزل القديم. ها هو الظلم يمتد، لم يبقَ سوى بضع خطواتٍ وينتهي كلُّ شيء، الألم، العذاب، الحبّ، القلب، أو الإنسان، لا أدري! لكن سينتهي كلُّ شيءٍ قريباً وندخلُ معاً غياهبَ الحياة.

الملوَّح الجدّ قالها بلسانِ حفيده:

"دعوني قد أطلْتُم عذابِيَا _ وأنضَجْتُم جلدي بحرِّ المكاويا

دعوني أمُت غمَّاً وهمَّاً وكُربةً _ أيا ويحَ قلبِي مَنْ بِهِ مِثْلُ ما بيا؟"

البسيطة تقرأ وتنتظرُ النهاية، وإنّي لأهرب منها وأعيش بعيداً على أعتاب أجمل سيّدات كزانوفا. لَم يعدْ للطيور أسماءٌ وأصوات، تشابَهَ الكروان مع الغراب، دفَنَ الحبَّ ودفن الأخ!

لكنّني كالعنقاء، أدفنُ الحبَّ لأعودَ بحبٍّ أعظم من رحمِ القصائد والكلمات.

ضاعَ الوتر، زادَ انحناءُ القوس، صُنِعت الأشجانُ على رؤوس الشهود، تحشرجَتْ نغماتُ الكمان المُتعَب من السفرِ الطويل.

تنتابني الغصّة في أيسر الصدرِ يا ابن أمّي، أقرأ كلماتك وأبكي بحرقة، تتوقُ نفسي للأملِ المكتوب برسالتك الأخيرة، لكن قدّر الله وما شاءَ فَعَل.

عانق الناسَ بكلماتك يا عزيز، يحتاجُكَ المهجّرون وأطفالُ المخيّم.

تبكي لُبنى، الصحراءُ تنثر الحبّ، النفطُ يصدحُ عشقاً، تحاولُ ميلينا الوصولَ إليّ، وتسأل: أين هو منّي الآن؟

_ ألستِ أنتِ سبب الجثّة الهامدة؟

_ كافكا بعيد!

_ هو قريبٌ يا عزيزة، تحتَ الشريان الملتفّ ويكادُ يُخنَق.

_ سأكفكفُ دموعَه، علَّ درويش يبقى يغنّي كلّ نهار، صباح الخير يا ريتّا.

الصيامُ اليوم أنهكَ قلبي، عندَ الغروب تخيَّلْتُ صوتَ المدفع، لكنني لم ألجأ للطعام، صنعتُ مخدّراتي السمراء.

القهوة ليستْ مجرّد مشروبٍ عادي، إنّما هي حنينٌ وألمُ ذكريات، تدخلُ الجسدَ كلّ نهار، تسري مع الدم داخل العروق، توقظُ أسماء وأشخاصاً أصبحوا رماداً على صحن سجائري القديم، سقطوا كورقِ الشجر في فصل الخريف بعد أن كانوا ربيعَ حياتي ذات يوم. ستقتلني تلك السمراء يا ابن أمّي لأنني أدمنتُها رغم مرارتها!

لم يعدْ لديّ أملٌ يا عزيز، الخوفُ باتَ يخافني لأنني لم أعدْ أخافه، تبدّلت الأحرفُ المنشودة وأصبحت: ألم!

لن يكونَ المنفى يوماً وطناً، صمَّتْ أذنيها ليلى وتركَتِ الحجازَ صحراء من دونِ وردة وأخذَتْ بقايا الأحلام معها.

سيحدثُ كلُّ هذا، سيحدث، الحياةُ تصفعني وتنسى القبلة، أبتسمُ لها مجروحاً، تُهديني صفعةً أخرى.

نحبّ، نفتقد، ننتظر سلاماً يا ابن أمّي، لم يعد هناك سلام.

المُخلص لك: محمد المحمد.

١٤ حزيران ٢٠١٨ _ دمشق.

يا ابن أمّي.

عشرة أيّام تقريباً ولم أكتبْ لك! إنّ هذا لجرم بحقِّ الكتابة، إثم بحقّ الأدب، وظلام في وجهَيْنا معاً!

ما بالُ الأشياء تُسرعُ خطاها وتنفذ منّا إلى هاويتها؟ والساديّة تُمارَس بلعنة، تحملُ السوطَ بفمها وتُقحمنا داخلها مثل أنفٍ قبيح أعوج!

هل من أحدٍ يعرفُ إلى أين الوجهة الآن؟ وكم سيلبثُ الحزنُ على ضفافِ الروح ويدمي ماءَها ويدّنسه؟

كانَ الحدسُ اللّعين مُخطئاً حين ظنَّ الفجرَ عائداً، وأنّ كافكا لن يرجعَ جثةً هامدة، بل سيحيا، وأنّ قيساً سيُطفئ الجمر، وجميلاً سيُغنّي بثينة، ومياً ستجبرُ جبران!

مرّات كثيرة نُخطئ الإحساس، لكنّ الندم على قطرة فرحٍ هبطَتْ من رحمِ غيمةٍ مُخطئة لا يجدي!

على الأقل، ما تزال تحبّ أيّها العزيز، خلافَ الكثير من وحوش الحياة وملعونيها!

كتبتُ آنفاً:

"لم يكن الجرمُ جرمَه

ولا الذنبُ ذنبَه

هي فاجعةُ الحياةِ السريعةِ الممسوخة

حين يتحوَّلُ بشريٌّ لوحش

ويدنِّسُ البراءة... ويقتلُها

ويكسرُ كأسَها

ويحملُها على كتفِ الخذلان.

ليتَ الذي بيننا وبين المسوخ مثل قدح من دَنَس، أو طُهْر!

ننظرُ للنصفِ الفارغ منه فنمتلئ

ونشعلُ الشمعَ عمّا قريب

ونوقدُ نارَ المدفأة على مقعدِ الذاكرة

ونقعدُ على رصيفِ العمر

نتأمّل خراباً عامراً

ونساومُ على فتيل الشمعة الأخيرة

بعُصارةِ الروحِ النافدة

وشمعدان الصلاة الأخير!

لم يكن الإثمُ إثمَه

لكنّ الحياةَ كانتْ تسيرُ بالسرعة القصوى، فلم يتعلّم المسكينُ الحبّ!

كانَ عليها أن تمضي بوتيرةٍ أبطأ

كي يتعلَّمَ الحب... ويحبّ

ويقضي ما تبقّى منها بالحب

وينسى الوحشَ القديم والشرَّ والشمسَ المُنبثقة في هزيعِ اللّيل الأخير من بقعةِ الأرض الصغيرة

على درجِ الأضداد، يتدحرجُ الألم

من أسفل لأعلى!

وتمحقُ الذاكرة نفسَها، ثمّ تحيا عنقاء، ونبتةً لجلجامش الآثِم

ويظلُّ أنكيدو المُضحّي تحتَ سابع أرض!

ماتَ المسكين... الوحشُ القديم

بلا أن يتعلّم ما هو الحب!"

أمّا أنت، أيّها المُحِب المُضنَك، لا بدّ من سلوان تشربُ عصارتَه. ربّما رفضَ الجدُّ أن يشربَه قبلك، لكن عليكَ أن تفعل، لأنّك عرفتَ معنى الشعور وغصتَ وانغمست فقابلَكَ الظلم.

إنّ الناسَ يتصارعون على من يكون الضحيّة ويتنافسون ليُري أحدُهم الآخرَ مقدارَ ألمِه، لكنّك تهربُ للكتابة، وتنزف، وتدمي، أصابَكَ الضنكُ وبعثَرَك، فمَنْ يُعيد قطعَ الروح ويجمعها سواك؟

ها هي القهوة التي كَلَّمْتَني عنها تتجرّع نفسَها مصلَ الصباح، وتشربنا، وتدخّن العصارةَ الباقية لفافاتِ تبغ، ثمّ تغدو قدحاً، وتمضي!

أيّان أشربُها معك قربَ بردى أو على ضفّة السين، أو عند الراين والألبة؟

سيّان كلّ الأماكن، لكنّ الوقتَ ينفد، فلا توئد الأملَ وتَقلب حرفَيْه مثلما فعلَتِ الحياة، ربِّيه واصنعْ منه حلوى كثيرة ودرَّاجةً من أكاليل تقطعُ كلَّ شيء وتوصلنا للنهاية.

يا ابن أمّي، بحقِّ الشقاء! كفى ندباً، ارتقْ ما مضى وعُدْ مثلَ السنابل كي نأكلَ الحبّ عمّا قريب، قبلَ أن تمضي الحياة!

المُخلص دائماً، والمُحِب والمُنتظِر لنهاية الخليقة: يوسف شرقاوي.

٢٠ حزيران ٢٠١٨ _ ألمانيا، على نفس الأريكة.

يوسُف، عزيز اللّغة والكلمات، القلب الذي يتّسع البحرَ حباً، أكتبُ رداً على رسالتك وسؤالك الأخير: كَم سيلبثُ الحزنُ على ضفافِ الروح ويدمي ماءَها ويدنّسه؟

متى يُقطَع سوطُ ساديّة الحياة؟

لا تسألني عن الوجهة، فهي الآن إلى الدَّرَك الأسفل يا عزيز، وفي النهاية يُرمى الترابُ علينا وتُنثر الورود.

البحرُ عميقٌ جداً والحيتان جائعة ولا أملكُ المعجزات!

حدسُكَ لم يُخطئ، عادَ الفجرُ لساعتين فقط، أخذت نفساً عميقاً بمساعدته، أثقلَ جسدي مرّة أخرى وحرَّرَني جثةً ملؤها الحزن.

للمرّة الأولى أكتبُ لك وقلبي يرتجف! كم هو مؤلمٌ يا ابن أمّي أن تحافظَ على ما تبقّى منك!

أن تتشبَّثَ بإنسانيّتك، بلباقتك، بهدوئك، بصبرك، بحبّك!

سأبقى متمسكاً بالفطرةِ الأولى رغم أنّ ميَّاً كسرتْ جبران، غادة طعنتْ غسّان، والليلتَيْن قد ضحّتا بالقيسَيْن.

كتبتُ كلَّ الكلام في حبِّها

سافرتُ لكلِّ بقاع الأرض

صعدتُ الجبال، عبرتُ البحار

قطعتُ الحواجز، شربتُ الأنهار

كلُّ هذا وذاك لأهربَ من طيفها

وما زلتُ أرى وجهَها على خبزِ الصباح

ما زالَ عطرُها يتغلغلُ في الهواء

حاربتُ النسيانَ وغُلِبتُ عند حروف اسمها!

لستُ النارَ التي تَطَّلِعُ على الأفئدة ولن أكون

صُلِبَ المسيحُ على الأخشاب ولم أكن!

رأيتُها وطناً ألتجئ إليه في الحروب

كُنتُ أصغرَ من نُطفةٍ في الوجود

تنزَّلَتْ عن الغرام ففاضَ في جسدي الهيام.

الجرمُ جرم الأوّلين يا أخي، الذنبُ ذنبهم! هم من صنعوا الخذلانَ لنا وصنعوا البطولات، نحنُ من خانَ الخشب ليصبحَ قاسياً وتحشرجَتْ نغماتُ الكمان من ذنوبنا!

الريحُ تعصفُ بالأرض وبالبلد، أغنيةٌ سوداء للبيضاء تقول:

كوني كالأندلس على أعتابِ السماء والفرح...

أحيطُكِ كالتامور يا وجعَ القصيدة

لا تبتاعي الألمَ بقلبٍ أحبَّكِ ذاتَ يوم

لا تقتلي أمسَنا، كلُّ الوقت لك

سأردُّ التحيّة عند محاولتك قتلي

لا تقلقي أنا هو، من رآكِ في يومٍ ما جميلة!

مصيرُنا واحد يا صديقي، الجدُّ أورثَ حفيدَه الضنك وأورثه بقايا ليلاه، غصتُ في الفقد حدَّ الغرق.

حرَّاسُ الروح يخونون كلّ يوم، أهديتُهم قلباً مطعوناً فردّوا الطعنةَ وأعادوه إليّ على هيئةِ ورقة شجرٍ مُمزّقة، بالية لم يمرّ عليها ربيعُ نيسان، إنّما خريفٌ قاسٍ.

القهوة تتعبني يا ابن أمّي، ها هو الكوبُ الثالث واللفافاتُ لا تُعدّ ولا تُحصى.

خطُّ النهاية يقترب يا ابن أمّي، بعدما خانَ بروتوس يوليوس!

عادتِ العنقاءُ من الرماد على هيئةِ الجائرة،

لن يعودَ سيزيف لخطِّ البداية، الدمعُ يُزيد الصخرةَ وزناً!

قيس التقى بلُبنى ولم تمُتْ عندَ الصخرة،

انتشرَ سمُّ نيرون في الهواء ليقتلَ الحبَّ في النفوس، عاشرَ البرقُ النجمات واختلطَ بزَبَد البحر وقُلِبَ القارب!

هوميروس كتبَ الأشعارَ لطروادة فغنّاها نيرون من الأعلى مستمتعاً بحريقِ روما، بالصراخ وبرائحة الأجسادِ بين فكّي اللّهب. ماتَ رمسيس ولم تمتْ ذكراه حتّى بضحكةٍ ساخرة!

فاضَ القلبُ والدمُ انسكب، تُسافرُ الطيور ويبقى الكروان يغرِّد للصباح، انهَضْ على مأدبةِ العشاء، سنتقاسم الجسد، هناك بعدما سكنَتِ الرّاء منتصفَ الحبّ.

عادَتِ الأيادي مقطَّعةً للميناء، شُيِّدَت القصورُ من الدماء. الطفلُ على الشاطئ يلعبُ وحيداً، يواجهُ الصخورَ المنحدرة من الجبال، يركضُ بينهم، مِنَ الأفق يراه المُتعبون ويظنّون أنّه رجلٌ قويّ يهربُ من ردمِ البحر، وهو لا يدري ما يحدث، لكنّه فقدَ لعبتَه على متنِ قاربٍ صغير!

سأعتذرُ لأوفيد بعد ألفَي عام وأقولُ له:

إنّني أرى الشرَّ وأصدّق به، لكنّي أفعلُ الحقّ، وأضيفُ إلى ذلك يا عزيزي: هم يرون الحقَّ ويصدّقون به لكنّهم يفعلون الشر.

حتّى أوفيد يا يوسف كتبَ في السنة الأولى قبل الميلاد:

لا تمتزج الكرامةُ والحبّ جيداً ولا يستمرّان سوياً إلّا لفترةٍ قصيرة، فلتكنْ أهلاً للحبِّ إذا أردتَ أن تُحَب!

ها أنا هنا أتمِّمُ مسيرةَ جدّي الأوّل الملوَّح، وأعيشُ على نصائح صديقي البعيد الذي لم يسمعْ بي قط، أوفيد.

لا أعرف كيف اتّكأ درويشُ على غياب ريتّا!

لكنّني أعلم جيداً أنّ قاتلتي ليسَتْ بريئةً من النزفِ في قلبي الضعيف، رميتُ بأحلامي للأيادي المبتورة يا عزيز، فلا تسألني الذي لا أستطيعُ تنفيذَه. الأملُ هرَبَ لما وراءِ البحر، والصحراء خلفَ البحر، أنا من أضاعَ الطريق.

سنلتقي ونشربُ القهوة على ضفافِ الراين. سامحْ ضعفي فأنا مثلما سمعتُ أخيراً من صديقةٍ مقرّبة: سببٌ كافٍ لأجرحَ كلَّ شخصٍ يدخلُ حياتي.

المُخلص لك: محمد المحمد.

22 حزيران ٢٠١٨ _ على وسادةِ حلمٍ وراءَ الستار، على شفا الأبديّة، بجبلٍ يعلو بردى.

أيّها العزيز.

فمُ الحزنِ والأشجان، الإنسانُ المُحاط باللّبلاب، لثمَكَ حورون، لدَغَك، سمَّمَ حياتَك وشجرتَها، قضَمَ حنجرتَكَ وأخذَ صداحَك.

كيفَ تُقطَعُ المسافة بين كأسَيْن يشربان الراين وبردى؟ كيف يجري مبتورُ القدمَيْن والقلب؟

الحياةُ صمّاء بكماء عمياء، تنفثُ لظاها عليك، تضحكُ مكراً، أيّة ملحمةٍ تخوضها بروحك؟

أنتَ الوحيدُ هنا... يذوِّبُكَ القَدَرُ حصىً صغيرة

ويأتيكَ باللّعنة مِنَ الحبِّ القديم!

تنبّأ البحرُ بألمك... فنصَبَ الشراعَ أبداً

ليظلَّ يحومُ حولك، يندبُكَ وتندُبُه

أنتَ الوحيدُ هنا، أطفأتَ الشمس

وجرَّعتَ القمرَ مصلَ الويلات

شربتَ نورَ الزهرِ وعصرتَه

قصَصْتَ أجنحةَ الغربان، وفقأتَ أعينَها الباكية

أعميتَ البيابي، قصَّرْتَ العاجَ شوكةً

فأيُّ ألمٍ دنيويّ يستطيعُ خلعَ أبواب الأبديّة الموصدة؟

ويُقتَلُ السهاد، فتمضي السنون

وتبقى شاباً يافعاً حتّى النهاية

مُضنى من الشعور، ينهكُكَ وتنهكه

وتوقظُ جمراتِ اليقين، فيستعذبَكَ الشقاء!

تدلفُ الحياةُ إلى كوخك بأشباح السراب!

ها أنتَ تكسرُ جدران الخلود

بروحِكَ الموجوعة

بخيمتِكَ القديمة في الصحراء، والجمرُ بينَ يديك...

بقصيدتك الغزليّة، تقتلعُ الحناجر!

يا حبّ! لِمَ رحتَ بالإنسان الجيّد إلى الهاوية؟

لِمَ أدخلْتَه براثنك الملتهبة وأذقْتَه مرارتَك؟

أضنيتَ النعيم... فلاقِ ما هو موشكٌ على الإقبال

رُحْ بالنقمة إلى كرى أفروديت الطويل

وبُحْ بما جَرَى للطيّب الوحيد على وجه المغمومة العجفاء...

آخرُ زهرةٍ وفيّة تقابلها.. تشوّكها.. وتدميها!

وينصبُ بحرُكَ يافطةَ الروح الموءودة أعلى الموج!

أيّها العالم الأصلم... أيّتها الحياة المنشودة المنجودة!

أتقابلان من بسَطَ يديه بهذا الغلّ؟

يا أخاديد الفرح، البلاءُ أصابه!

فهلمّوا... بمواجدكم المتقطّعة

وتهليلاتكم العذبة... امسحوا على قلبه، وغطّوه.

يا ابن أمّي، إنّ الأملَ مرياعٌ نمضي وراءه نحملُ الأسفار. العذابُ مصدرُ الصدقِ الوحيد، بصنوفه كلّها.

مَن يعرفُكَ يدركُ الحياة ومَن تدخلُ عالمَه يحسّ.

يا ماءَ الذهب الخالص النقيّ، أُغنّي لك ولي مثلما فعلَ الإغريقُ للحكمة وأعتذرُ من المتنبّي في قبره إذ أقول:

"الشَّجْنُ والحُزْنُ والدَّهْماءُ تَعْرِفُنا

والبَيْن والنَّأْيُ والوَيَلاتُ والألمُ."

هل تردّنا البلادُ إليها؟ هل تعي أم تدرك متأخرةً بصفاقة؟ بردى يقتلني يا ابن أمّي، أمرُّ من قربه صاحباً ذاتي الفقيرة، توقفني عشبةٌ بزغَتْ بين جنباته، أكياسُ قمامةٍ فيها الإنسانيّة، وعدّة عبراتٍ تتساقط من عيون الأمّهات مع مياه الصرف.

البحرُ مخيف، الورقاتُ في الوكالة، الموجُ هائج والقاربُ ركيكٌ مثل الإحساسِ الهش، فُتِك بنا... فُتِك بنا أيّها العزيز.

دعكَ من كلّ شيء، لننتظر كوبَيْن من القهوة على ضفَّةٍ نائية، نتجرّعها حالمين، بصمتٍ مطبق، حاملين نوبل واهمة بين أعيننا، عند الغسق، ورسائلَ كثيرة نقرؤها قاطعين نهر السين.

هنا، بين الطرق المكفهرّة الفقيرة، ثمّة نافذةٌ ضائعة تُوصلنا، لكن علينا القفز، فالجهةُ الشرقيّة منها تُميت، تقتلُ العصافيرَ المغنيّة على حافّتها!

سأبقى حتّى النهاية، المُحِب والمُخلص والمُنتَظِر: يوسف شرقاوي.

٢٨ حزيران ٢٠١٨ _ على ضفاف نهر السين، باريس.

صديقي يوسف، أخبرتُكَ برسالتي الأخيرة أنّني مسافرٌ إلى فرنسا، أكتبُ لك الآن وكلّي شوقٌ لفنجان قهوةٍ معك على ضفّة نهر السين. أجلسُ على جسرٍ في وسط باريس -جسر الحبّ- كما يُطلَق عليه، يأتيه العشّاق والمتزوّجون فيضعون الأقفالَ لتكونَ ذكرى لهم فوق النهر -مقابلَ برج إيفل وعلى كتفِ متحف اللوفر الشهير، فهو يربطُ رصيفَ ملاكي وكونتي بحديقة التويلري- ويربطُ قلوبَ العشاق أيضاً.

أتعلمُ يا عزيز أنّ الأقفالَ هذه كانت ستتسبّب بانهيار الجسر؟ تدخّلت الحكومة الفرنسيّة وأزالتها في عام ألفين وأربعة عشر، لكنّني وضعتُ قفلاً للتو. لن يسقطَ جسرٌ يحملُ قلوبَ العشّاق، لن تسقطَ الذكرى يا عزيز. شوارعُ باريس تحتضنُ مئات الآلاف من القصصِ أمامي، الأرضُ قاسية، الشمسُ حارقة، السماءُ كوجهِ فاتنتي، الغيومُ متفرّقة كعيوني وعيونها، والقفلُ يشهدُ على بدايةٍ جديدة.

هنا أمامَ متحف اللوفر الشهير، أمامَ عيون إيفل، في شارع الشانزليزيه، عند الدائرة الأولى والحديقة الرائعة، خلفَ البحيرة، تحتَ تلك الشجرة وعند الدائرة السابعة من الضفّة الأخرى، وراءَ السياج، أمامَ نظرات الأطفال، الشيوخ، العشّاق، العاطلين عن الأمل، الغائبين عن الوطن، الهاربين من الحياة، المُنسلخين عن جنسهم، تلك الشقراء تُحدِّق، ذلك الوسيم يَرقص، العجوزان يُقبِّلان بعضهما، فوقَ الغيوم وتحتَ المطر، تحتضنُ باريس كلَّ شيء يا ابن أمّي، حتّى الذكريات.

أقرأ كلماتك الأخيرة وأناشدُ الحياة، أنهكْتِ قلبي يا حياة، خارَتْ قواي يا غريبة عنّي، تعبَتِ الروحُ من السفر إليها، ما بين نقطتين ذهاباً وجيئةً، البحرُ لا يعرفُ الرحمة، يقتاتُ الموج من الصخر، عند كلِّ صفعةٍ أتخبّط بين مدٍّ وجزر!

كتبتُ في نهاية الحبِّ الذي مضى:

هنا في باريس أتممتُ ترتيبَ حياتي، قد وصلتُ إلى نصفِ ما أريد، أرسلُ لكِ من مدينة الجمال، من شرفةِ بيتي المتواضع، أنتظرُكِ بفارغ الصبر. أنهيتُ التجهيزات لحفلة المساء، اخترتُ الموسيقى الهادئة التي تحبّين. كرسيّان خشبيّان، بعض النبيذ، سيشهدُ برج إيفل على حبّنا، ستغارُ نساءُ فرنسا منك، لن تكتملَ فرحتي رغم السّعادة التي تُحيط بي في أجمل مدن العالم إلّا بوجودكِ هنا جانبي. أنتِ حلمي الأوّل وأول أولويّاتي، أنتظرُكِ بفارغ الصبر، وأتوقُ للصّدفة المُخطَّط لها.

ذهبتُ بقلبٍ مبتور، متعكزاً على بقايا جسد في قافلةٍ من أمل، ترجَّلتُ على رصيف السعادة. كان اللّقاء هنا يا يوسف، تواعدنا وقالت: لن أتأخّر.

أتى ديسمبر، أصبحَتِ الأيّام أطول، لم يأتِ طيفُها، لن تُعطِّرَ هواءَ فرنسا مع أنّني تحدّيت كلَّ شركاتِ العطور أن تصنعَ عطراً يُضاهي رحيقَ أنفاسها. بدأتِ الثلوجُ تتساقط، غطّى البياضُ المكان، الكرسيّان ما يزالا صامدَيْن.

صمتَتِ الموسيقى، لم يعد يحتاج النبيذُ ثلجاً، أصبحَ قطعةَ جليد.

غادرَ ديسمبر، المسافةُ لم تعد قريبةً بل باتَتْ أطول. باغتني القدر وأعادني جثةً هامدة يا ابن أمّي، وأنا الذي أضاعَ قلباً في شوارع باريس، يبحثُ عن الأشباه بين المارّة، يُحاكي التماثيل على الطرقات: ألمحتُمْ ظلَّ قلبٍ يمرُّ من هنا؟

قالها شيكسبير: ساعاتُنا في الحبِّ لها أجنحة، ولها في الفراقِ مخالب.

أتخبّط وكلّي يهذي، أعودُ للواقع، للحلم، للخيال معكَ يا صديقي، لرسالتك، أتعلم؟ أوّل مرّة أحتارُ بالردّ على كلامك. وتَّخْتَ الحياةَ لأجلي، قلتَ لها ما تمنَّيتُ أن أقول.

لقد عصرتُ ما تبقّى من حبٍّ لديّ، لم يبقَ أبواب! عادَ السهاد، تمضي السنون ويشيخُ القلبُ ويبيضُّ الشريان!

كما قال شيكسبير: أكونُ أو لا أكون. هذا هو السؤال يا ابن أمّي.

هذا الغلُّ يأخذني إلى الطريق المظلمة، هناك حيث الوحوشُ تسكنُ منذ ملايين السنين. صوتُ الغراب يدلّني على النهاية المُنتظَرة. أشتمُّ رائحتَهم، العفنُ مصدره الظّلام.

أشكرُكَ يا عزيزَ القلب على ما قلته، كلُّ الكلام في رسالتك لن يعطيها حقَّها. أتمنّى أن تعيدَنا السماءُ للأرض بعد خيانةِ البحر لها. اتَّكِئْ عليّ ولا تترنّح على ضفاف بردى. ما أصعب خيانة البحر والدولة الإسكندنافيّة! سأسافرُ إلى الدنمارك في غضون عشرة أيّام يا ابن أمّي، سأحملُ وجعَك معي، وأُلقي حبَّك على الطرقات ليراه قمرُ يافا.

يجبُ أن نفتكَ بالذكريات رداً على فتك الحياة بنا، ونحتسي كوبَ قهوةٍ على ضفاف السين، ونحتفلَ بنوبل الأخيرة. سترافقنا صديقتنا نيرمين فقد تكلَّمتُ معها منذ بضعة أيّام لأخبرها أنّ النتاجَ الأوّل لكَ قيد الطباعة "أين الربيع؟" المسرحيّة التي ستعيد لروح شيكسبير السعادة. قالت لي: "إنّي أرى في يوسف دان براون، هذا الشابّ الطموح الرائع صاحب القلم الفتّاك والفكر القويّ،

ستُعيد كتبُه البسمةَ للشارع العربيّ، وأراكَ ماغوطاً جديداً، كم كنتُ أحلم أن أصبحَ محمّد الماغوط! قابلتُ من الكتّاب عدداً كبيراً، لكن لم أجد وجهَ وروحَ وقلبَ وصوتَ وقلمَ الماغوط إلّا بك."

أيُّ فرحٍ انتابني بكلماتها؟ فمنذ طفولتي وأنا أحبُّ الكاتبَ الرائع محمّد الماغوط كما أخبرتك سابقاً، وها هي نيرمين الصديقة الرائعة صاحبة القلم اللّاذع والفكر الجميل، القاصّة المتميّزة التي أرى بها باولو كويلو، تقلِّدني وساماً سأفتخرُ به ما حييت.

سنحتفلُ يوماً ما بنتاجنا يا عزيز القلب، ابتسمَتِ الحياة أخيراً، ها قد أتى الربيعُ بربيعك المُنتظَر. النجاح كلّ النجاح لعملك الأوّل. متى ستنتهي من الطباعة؟ ومتى سأحملُ كتابَك الأوّل بين يديّ وأستمتع بقرائته؟

المُخلص دائماً لك: محمد المحمد.

١١ تمّوز ٢٠١٨ _ دمشق.

صديقي العزيز، الملوَّح والملوِّح، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب، محمد المحمد.

لقد تأخَّرتْ هذه الرسالة حتّى وصلت أيّها العزيز، بيد أنّ ساعي البريد شَطَن، والدوائرَ والمراكزَ والإضبارات والمعاملات والإمضاءات تأبلَسَت، فكلُّ شيءٍ تسكنُه روحُ الشيطان، حتّى باريس والسين، السين الذي يفقأ عينَ القارب ويثقبُ الشراعَ المنصوب الشامخ، يُغرِقُ الجبلَ الجبّار، فلكلِّ كبيرٍ صغيرٌ ينحره، ولكلِّ عظيمٍ هاويةٌ يقف على حافّتها. القنديلُ يلسعُ البحر والأفعى تلدغُ الوكر، حلوى العيد تصبحُ مضغةَ موت!

أولئك الذين علّقوا الأقفالَ قد خافوا من الأمد الدنيويّ، من الروح الدنيئة التي تسكنُ العالمَ المشوَّه، فأوصدوا الحكاية وحبسوها خلفَ القضبان كي لا تفرّ، قتلوا ذاتَهم الثكلى في الغياب، الخنساء في الوجود.

من أدماكَ يا ابن أمّي؟ هل كانَ عليك أن تقدِّمَ روحَكَ وجلدك قرباناً وجزيةً مقابل لقمةِ الحبّ السائغة؟ أن تقفَ أمامَ الحُصن بصدرِكَ العاري لتدافعَ عنه وحدك؟

لكنّه يبقى يهاجمك مثل لسانِ أفعيَيْن جاثمين على منكبِ الحياة، مثل عقربٍ لدَغَ صاحبَه وصارَ يطمئنّ عليه!

هل كانَ عليك أن تشهرَ إصبعك في وجهِ الوجود وحدك، لتفرزَ غدّتاك هذا الألم ويضخُّ قلبك دماً مُثخناً؟

لقد سطَتِ الدنيا تماماً حتّى صارت الرماحُ تأخذ قدميك إلى المدن والهجرة، فتمحي أنتَ الخطيئة القديمة، تُكفّر الذنب غير المُرتكب، فلا تشبِّب بل ترثي، ولا تتغزّل بل تندُب، ولا تُغنّي بل تهلِّل!

اللّيل يمرُّ ألفَ عام والنجمُ في وضح النهار يخنقُ غمدَك. العتمةُ التي في الأفق تتسلَّلُ إلى قلبك، والبحرُ والماءُ والفولاذُ والنار يجتمعون في خلاياك ليشكّلوا معدناً واحداً لا ينصهر.

لأجهرنّ لك أنّني لم أعرف حتّى الآن كيف تكتب! كيف تندى وتخلق هذا الوميض وهذي الشرارة!

المآسي كثيرة، قد لعنْتَ قلمَك الذي يكتبُ عن الكثير من الناس وطمحتَ لتخطَّ المآسي كلّها، منذ فينة قلتَ لي:

"بعد كلِّ سطرٍ أكتبه، أشاهدُ المطر، تخرجُ روحي بقسوة وأرى قطعَ قلبي تتناثرُ كزجاجٍ مثلج صُبَّت عليه حممٌ من البركان، فما بالك إن كتبتُ روايةً يا عزيز؟"

ها نحن ننتظر أيّها العزيز، بالحواس كلّها نترقّب.

نيرمين وأنت وأنا، أناسٌ مثل مَن ذكرت، لنا أسماؤنا ولهم أسماؤهم، نحن وهم هم، والرحلة التي رافقتهم ستأتي إلينا عمّا قريب.

أشكرك يا ابن أمّي وأودُّ الاعترافَ أنّك لم تترك لي شيئاً لقوله.

ستحملُ الكتابَ بين يديك بعد وقت.

المُخلص لك دائماً: يوسف شرقاوي.

٢٥ تمّوز ٢٠١٨ _ الدنمارك.

صديقي يوسف.

كما قلتُ لك في رسالتي الأخيرة أنّي مسافرٌ إلى البلد الإسكندنافيّ فقد اشتاقَ الغصنُ للشجرة، هناك حيث السَنَد الأول، الجنّة الأولى، الأغصان وفراشات الربيع.

أكتبُ لك تحتَ السماء القريبة -هنا حيث بدأَتْ سلسلةُ رسائلنا- على كلماتك الأخيرة وعلى كلِّ شيءٍ سكَنَتْه روحُ الشيطان.

هي خيانة القدر يا ابن أمّي. الحزنُ يحتاجُ دوماً لمسبّبات والأحضانُ تبحثُ عن الشوقِ وتتوقُ للحظة اللّقاء بعدَ الوداع الأخير، خارج الوطن في الغربةِ الحمقاء تُبعدني غربةُ الأرض عن القلب، كُنْ بخير لأجلنا يا يوسف ولا تترك القرّاء وحيدين، فالوحشُ نائمٌ في بحرِ الشمال، يستيقظُ كلّ ليلة، يحملُ الغرابان هوجين ومونين الخبرَ لأودين صاحب العين الواحدة،

النائم على العرش في أسكارد، يهتزُّ الكرسيُّ من تحته ويصرخ: هبّوا يا شعبَ الفايكنغ ضحّوا بالعذراء عندَ صخور لوخ نس ليهدأَ البحرُ ويبقى بعيداً عن مقعدي الأزليّ، حيث السماء القريبة والشمس الحارقة.

ضحِّ يا يوسف

بصخرتكَ القابعة على كاهلك

ضحِّ بها ليهدأَ الوحشُ الأخير في صدرك

ويعودَ قلمُك للورقة يا صديقي

التهم الأدبَ وانهَشْ في الكتب

ما تزالُ المفرداتُ عالقةً في رأسك

كتاب "أين الربيع؟" هو البداية وليس النهاية، ابحَثْ عن كلِّ الفصول على المقاعد الأخيرة

التقِطْ ورقةَ الخريف، صوِّرْ لنا عينَ الشمس، خسوفَ القمر، واحضن المطَرَ الأخير، حينها سينبتُ الربيعُ في قلبك.

اقتل الذئبَيْن اللّذين يتصارعان على التهامِ القمر، هكذا يصوّرون لنا الخسوفَ في الأراضي الإسكندنافيّة.

كم كنتُ سعيداً للمشاركة الأولى لي ولك، جمعنا كتابٌ أخيراً يا ابن أمّي، كم تمنَّيتُ أن أرى فرحتَكَ وضحكةَ قلب نيرمين، قد علمتُ بما فعلَتْه عند رؤيتها أسماءنا في كتاب -نصف وطن- الذي شهدَ الولادةَ الأولى بعد ربيعك، وإنني أتوقُ لربيعي الأوّل، لكن كيف ذلك وأنا بعد كلِّ سطرٍ أكتبه، أشاهدُ المطر، وتخرجُ روحي بقسوة، أرى قطعَ قلبي تتناثرُ كزجاجٍ مُثلج صُبَّت عليه حممٌ من البركان، فما بالك إن كتبتُ روايةً يا عزيز؟

بعد لقائك بصديقتنا نيرمين قنواتي في المعرض والإهداء على العمل الأوّل بقلميكما، كتبت:

على الأريكة الفقيرة وحيدٌ، وحيدٌ جداً بعد خيانةِ قدرٍ ومفاجأة قلبٍ انقسمَ نصفَيْن.

امتلأَتِ الكراسي على الطاولة وبقيَ الكرسيُّ الثالث يصفعه الهواءُ في الشارع الدمشقيّ كما يصفعُ الحزنُ قلبي!

ألَم تسمعا أنينَ الكرسيّ وقهوتي الغائبة؟

ألَم تعلما أنني متعبٌ من مفاجآت القدر؟

أأبكي أم أفرح؟

ليتَ الدموع تُكتَب والحزنُ يُصوَّر ودقّات القلب الأولى تُنطق، كنتما عرفتما ما يجتاحني في هذه اللّحظة.

كيف تركتما الجسدَ وحيداً على الأريكة المُتعبة؟

كيف كانَ اللّقاء الأوّل، والوداع؟

هل قرأتما رسالتي؟ أوّل ما نُشر لي! هل شاهدتما بدايةَ المسير المُتعِب في ثنايا الأدب؟ أحملتما صخرةَ سيزيف الأولى؟ أكانَتْ ثقيلةً كما تصوّرناها يوماً؟

الأدبُ جبلٌ على كاهلنا يا صديقَيّ، حافظا عليه من الأقلامِ المُتصدّعة.

على الرغم من خيانةِ البحر ووعود القمر، حكاية علي بابا والأربعين حرامي، أمير المؤمنين الحديث وولاية العهد، خرافات أيلول، ساعة الحائط المتوقّفة، الهاتف المُغلق، الرسائل التي لم تصل، تعويذة المسافر، دعاء المحطّة الأخيرة، الوقت الفاصل، الشمس والبحر، القارب المثقوب، الطائرة المُتأخّرة، الساعة الرمليّة، ورقة الشجر، الحذاء القديم والغرفة المُتصدّعة، المقبرة الأزليّة، المُسافرون إلى وعبر السماء، احمرار الأرض، بياض الكفن، المُعتقل والمُعتقلة، السلام والعبوديّة، حريّة الهواء، العقل تحت أنظار المخبرين، جدّتي والزهايمر، كتابات الذين حملوا قبلنا كلّ شيء على عاتقهم، الوزر الأخير، اللّهب المنتشر، أنثى اليوم، الخطوة قبل الصعود للقطار، التفكير في الوصول، وقت الطريق والركضة القاتلة للّحاق بالقافلة، لم تصل الرسائل ولم يعتد هذا القلب على السفر!

هو اللّيل يُكذِّبُ كلَّ شيء في داخلنا، يجترُّ من الذكرى ليعودَ ويرسمها أمامنا، يُنبّهنا كي لا ننسى، يفطر قلوبنا دوماً.

بمساعدة القمر يقول لنا: ذكراك هنا انظر! المسافةُ لم تعد قريبة، المسافة باتَتْ أطول!

يا صديقي حتّى الحبّ فقَدَ الحبّ في غياب الرسائل الورقيّة.

ماتَ رمسيس ولم تمُتْ ذكراه حتّى بضحكةٍ ساخرة!

بعد عودتي لمنزلي في ألمانيا -في ضواحي مدينة دورتموند- في القرية الهادئة أنا وصوتُ العصافير نسكن، قضيتُ ليلتين في المستشفى القريب ذات الذكرى اللّعينة، كنتُ على بُعدِ خطوةٍ من الموت بعد خيانة الغدّتين لكن من سوء حظّي نجوتُ لأعودَ وأقول لها: اشتقتُ لك،

ما أحلاكِ وما أقساك!

وأكتب من جديد، لم تعد الأيّام تعنيني يا ابن أمّي، كلّ يوم هناك انتحار، كلُّ حرفٍ يأخذني إلى العجماء ويهوي بي إلى الأرض. أرتجفُ على السرير الأبيض، أشتاقها، بدأتُ بالبحث عن تلافيفها بكلماتي، أطرافي باردة، غصَّةٌ في حلقي، إنّه الموت من جديد، لم تنفعْ ثلاثُ حبّات من المسكّن. السجائرُ أثقلَتِ الألمَ على صدري وحبُّ الغائبة يتربّع على كتفيّ، متقوقعٌ على ما تبقّى مني.

أكتب، لمثل هذا خُلِقَت الكلمات، أنثرُ حروفي وأرميها بكلِّ الاتجاهات، لعلّها تلامس شعرها، وجنتيها، وقلبها.

"نيرونُ ماتَ ولم تمُتْ روما."

الساعة الثالثة والنصف.

أستلقي على السرير منذ ساعات، أرتجفُ من البرد، قلبي يكادُ يتوقّف من التعب، أتوقُ لسيجارة تُهدِّئ ضجيجَ رأسي. أشتاق! لمن أشتاق؟ لا أدري يا عزيز.

ربّما للوداع الأخير، للّحظة الأولى، للنظرة، الهمسة، اللقاء، لعيونها، ضحكتها، صوتها، لخبرٍ صغير يحجبُ الشمس.

المجرّة بعيدة والقمرُ لم يظهر.

أيّها الموت، إن كنتَ ستأتي إليّ مباغتةً أرجوكَ أخبرني عندما أسألك، لا تكذِبْ عليّ فأنا لا أحبُّ المفاجآت!

المُخلص لك، سأبقى بجانبك ويبقى للعدم وجود، محمد المحمد.

١٩ آب ٢٠١٨ _ دمشق، ضاحية نائية عن رحم المدينة.

صديقي العزيز، محمد المحمد، نَصْلُ الكلمات وسيفُها الجارح المُحِب.

إنّني على عجلة، أريدُ جواباً ضرورياً لسؤالٍ يتنقّل في دماغي من جدارٍ إلى جدار منذ أيّام: ماذا لو كانَتْ مصائرُنا في أيدينا؟

أريدُ أن أتوصّل إلى نتيجةٍ مُقنعة، إلى حقيقةٍ تَظهر بوجهها الفعليّ، لا أريد شيئاً أكثر من هذا، أن تدلفَ الحقيقةُ بنفسها إلى هنا، إلى الأمكنة غير المحسوبة في خرائط العالم، حيث الفقر والفقراء، وهناك أمرٌ آخر يؤرّقني، مرَّت أيّام لم أنَمْ فيها سوى ساعتين، هل الفقرُ نتيجةٌ أم سبب؟ هل الفقرُ سببُ وجودِ الفقراء أم العكس؟ هل نحبُّ أنفسَنا ونمقتُ الفقرَ أم نفعل خلافَ هذا؟

أيّة دوامة هي هذه؟ إنّنا محكومون بخيبةِ ليس! كنتُ أُحدِّث نفسي، أشذِّبُها وأبريها وأضربها وألعنها، وأنظرُ إليّ بعينٍ ثانية، لا أعرف إن كانت نظرةً حقيرة لئيمة أو نظرةَ إعجاب!

أرغبُ أن أعترفَ بهذا المكتوب، أن أعترفَ بأشياء كثيرة، لكن قبل أن أدلفَ إلى غرفةِ التحقيق مع الذات، أريدُكَ أن تقرأ ما لقَّنتُ نفسي به قبلَ الرضوخ. خيبةُ ليس نفسها، وقد ضممْتُ القصيدةَ النثريّة للديوان الشعري، واتَّخذْتُ قراراً نهائياً

أنّ هذا سيكون آخر ما أنشره في حياتي -أي الديوان- بعد أن ينتهي كلّ شيء وبعد أعمال كثيرة تسبقه، فأنا ما زلتُ أحاولُ الصمود، أحاولُ بضراوة أيّها العزيز:

تطهَّرْ من رجسِ الحزن أيّها الكهل الشاب

عُد إلى براثنك باسمَ الثغر، ضاحكَ العينين

مشدوهاً من اللّعنة

والفظْ لظاكَ على قهرك ليتبدَّد

فبينك وبينَ البلادِ حكايةُ ظلم

مُثخنٌ بالطعناتِ أنت

لكنّك لستَ مُستهدفاً!

لستَ أنت

ارجعْ إلى الكهف

تجرَّعْ مصلَ الخلاص

تطهَّرْ أيّها الكهل الشاب... تطهّر

فبينك وبينَ الحزنِ رحمٌ غير عقيم

وأنتَ ونسلُكَ فائضان عن الحاجة

ماتَ الجميع... ماتَ الجميع!

وعادَتِ المقهى وحيدة، تُداعبُ خرطومَ الهواء وترشقه

قاوِمْ... قاوم

واخرُجْ من ثقبِكَ الأسود

لا تمضِ وراء غواية الحزن لك، فهو عاهر!

مثل ضبابِ الحلم

ولا تركضْ وراءَ حمرةِ الفرح

فهو مومسٌ في اللّيل!

دعْ عنكَ كلَّ الأشياء، سِرْ نحوَ النافذة

وقبلَ أن تستنشقَ الهواء، نظِّفْ رئتيك

وقبلَ أن تقطفَ وردة، ابكِ

لا تقحمها كلّها في أنفك، أبعِدْها عن الشوك

واقتُلْها مع صوت المحكمة الذي لن يصدرَ في حقّك...

انصهرْ... مثل معدنٍ ثقيل

ذُبْ في جحيمك مثل ورقةٍ خضراء مُلتهبة

حتّى الهواء مُلطَّخٌ مسموم

احبسْ أنفاسَك

لستَ أنت.. لستَ مستهدفاً

لكنّ الحياة ليست كما تشتهي!

هذه هي خيبة ليس! والآن أدخلُ إلى الغرفة، بشبهِ سيرةٍ ذاتيّة، كي أعرفَ نفسي على الأقل:

أذكرُ أنّني حاولتُ كثيراً الحصولَ على إلياذة هوميروس أو الأوديسة، كانت تلك القصص التي تسعى إلى الخلود تستهوي الروحَ الحالمة، تحلمُ بمكتبةٍ ولو كانت صغيرة تُشيِّدها خلفَ ركنِ الكتابة الفقير. ديوان المتنبّي والحماسة وما سلفَ ذكره لهوميروس الأعمى ومجموعةٌ كبيرة من كتبٍ أخرى كتَبَها الأشقياءُ على مرِّ العصور، فالقراءة وراءَ الشاشة أدمَتْ عينيّ يا سيّدي، وأقول: هل انتهى زمنُ الكتب حتّى يقبعَ عملٌ مسرحيّ في علبة دخان كبيرة لشهورٍ ليست بقليلة؟ أين نحن الآن من الأدب؟ وهذا لا يتّصل بالموضوع.

ذاكرتي قويّة، قويّة جداً، ما أزالُ طفلاً صغيراً يلهثُ أثناءَ المضي نحو الروضة، يطوفُ حول الكعبة المُجسّمة وخلفه صورة للنسّاك، يحاول عدَّهم. أذكرُ تلك التفاصيل الصغيرة من رحلةِ العمر التي كانَتْ وما تزال مثل ساعةِ الصفر الموعود بها منذ الأزل،

وأوَّلَها الحكّام والثوريّون واليساريّون واليمينيّون والشيوعيّون والاشتراكيّون والرأسماليّون والوجوديّون والعدميّون والبنيولوجيّون وكلّ تلك الفئات الجاهزة على ألسنة المثقّفين للانطلاق نحو فريستها، فكيف نتّفق على أن نتّفق؟

كنتُ في المخيّم جنوب دمشق، لا أظنّني طمحتُ ذات يوم لشيء -كانت أكبر أمانيّ أن أرجعَ من العمل وأنا طفل أحملُ قطعةً من البطّيخ بين يديّ أو لقمةً من الكنافة النابلسيّة، لكن هذا لم يحدث إلا قليلاً- وكانت هناك علاقةٌ وطيدة بين الرتابة المُنمَّقة للأشياء والجمود ودوران العالم من حول البسطاء الذين أقابلُهم مدارَ اليوم، وفجأة، دقّتْ ساعةُ الصفر على نحوٍ غير متوقّع، صافرةٌ دوَتْ من وجهةٍ معدومة آخذةً في صوتها الحاد خمساً وعشرين روحاً من الفقراء، البسطاء، الساعِين وراءَ قوت اليوم، وأتذكّر بصورةٍ دامية ذلك اليوم الرمضانيّ الذي غيَّرَ مجرى الحياة عكس التيّار، ماسكاً في قبضة يده روح الطفل "إبراهيم طلّوزي"

-الصديق العزيز، وقد لعبنا معاً طيلة أعوام- الذي كان ذاهباً لشراء وجبةٍ من الفول قبل الإفطار ومعه أربع وعشرين روحاً من الأصدقاء والغلابة الذين عرفوا منذ النَفَس الأوّل أنّ مغادرتهم من المخيّم لن تكون إلّا نحوَ السماء.

لا يحبُّ أحدٌ أن يذكرَ المأساة ومبائسَ الوجود التي تبان مثل غيمةٍ ثقيلة تهبطُ شيئاً فشيئاً، لكنّها بقعةُ الدم التي ظهرتْ منذ أيّامٍ ليسَتْ ببعيدة في عيني، تُقيمُ علاقتَها مع الذاكرة البعيدة لتنجبَ رأساً مصدوعة وليلاً كما غيره يعتمله الأرق.

وازدادت رحلةُ السعي بؤساً وسأماً مدى ستّة أعوام في الأرض السورية التي شملَتِ الفلسطينيّين، ولا ريب أنّني كغيري من المعنيّين بالأمر وأصحاب الهويّة أقول أنّ فلسطين أرضٌ سوريّة مثل الجولان ودمشقَ مولدٌ إراديّ، لذا أقرُّ بأنّني سوريّ الأصل وأشكُّ فيما إذا كنتُ عربياً بالفعل، إذ تفتّحت عيناي على التخاذل والتقاعس والانحلال الأخلاقيّ على المنابر السياسيّة والقمم المنعقدة والمؤتمرات المُندِّدة التي عُنونت جميعها بالقضيّة إلّا أنّها ذهبت بمجرى عفويّ نحوَ توطيد العلاقات مع أثيوبيا وكيفيّة صنع الشاي وطبخ القهوة.

درستُ النقدَ دون أن أعرفَ ذلك، بشكلٍ بديهيّ ربّما، اكتشفتُ ذلك منذ زمنٍ ليس ببعيد -عامان على وجه التقريب- وظننتُ أنّ هذه وجهةً صحيحة فقرأتُ عن الأمر عدّة كتب وبحثت كثيراً، وقبل ذلك كنتُ قد بدأت الكتابة، أي منذ أعوامٍ قليلة، وقلتُ أنّ هذا أمراً جيّد، ظننتُ الأمر كما سمعتُ عنه أو رأيته في أحد الأفلام الأجنبيّة كالآباء والبنات، أي أنّ على المؤلّف أن يذهبَ لدور النشر ويُقدِّم عمله ثمّ يعود إلى منزله ليكتبَ شيئاً آخر، ويعيش على ما يجلبه الأدب له، لكنّ "الإدراك المتأخّر" كما يُسمّى في الأدب الإنجليزي -بالقصّة القصيرة على وجه الخصوص- أخذَ يتّضح، ورسالة الماغوط إلى السائح لم تكن قطعةً مُتخيَّلة في ذهنه، إنّما عاشها كما يعيشها العديد من الكتّاب العرب، فمن يظنّ أنّ الراقصة تخرجُ في اليوم الواحد بأكثر ممّا يخرج به كتّاب سورية كلّهم!

كلما سُئلت عن عمري أجبت: لا يُقاس بعدد السنين! بل برحلة الشقاء والتجربة والسعي.

وصلتُ إلى الاستقرار أخيراً في ضاحية نائية بدمشق، يسألني الكثيرون: كيف أنهيتَ عملاً مسرحياً وروايةً ومجموعةً قصصيّة بهذه السرعة وشرعتَ بأعمالٍ أخرى؟

وأقول فيما ينأى عن التباهي، إنّما ضربٌ من الحقيقة وإجابة صريحة: أنا في سباقٍ مع الوقت، يعاندني وأعانده، يقتلني وأقتله، ورغم ذلك لا أكتب شيئاً قبل أن أدرسه، فقبل المسرحيّة "أين الربيع؟" كنتُ قد درستُ الدراما الإغريقيّة وجزءاً من المعاصرة، وكتبتُ المسرحيّة بتأثير من "سوفوكليس" محاولاً صنع قالب مختلف للنمط الإغريقيّ المعتاد، وبإجابة ثانية عن أسئلةٍ وردتني كثيراً وتعقيبات من عدّة قرّاء بأنهم لا يفهمون ما أكتب، فهو أدب الرمز، الإسقاطات الرمزيّة، كُلُّ لفظة توحي لمعنى آخر، وهكذا دواليك، لكن مسار القصّة مفهوم دون ضرورة فهم الإسقاطات، وهذا لا ضير فيه.

وللغرابة، فالذاكرة القريبة تتعارضُ مع البعيدة بشكلٍ مريب، إذ أنسى ما أقرأه، فمن الأعمال المسرحيّة والروائيّة والقصصيّة المقروءة لا أتذكّر شيئاً، وليس هذا في باب التفاخر، إنّما هو أيضاً جواب لسؤال تم طرحه.

أُحضّر سيناريو لعملٍ تلفزيونيّ، وهي التجربة الأولى بهذا المضمار، محققاً بذلك حيزاً من الطموح الذي تولَّدَ على حين غرة، وأوقفته، ثمّ شرعتُ أكتب مسرحية

بالعاميّة لأنّ سالفتها ما تزال في علبة الدخان تتجرّع الصبر، والمسرحُ يُغلق أبوابَه في وجهي، لذا فهي الفرصة الأخيرة!

لا أعرف كيف أكتب سيرةً ذاتيّة، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا سبباً من الأسباب التي جعلت ظهر "أين الربيع؟" فارغاً، وكلّ ما سبق لا يُعد سيرة ذاتية، إذ لا يمكن إيجاز الحياة بقطعةٍ مكتوبة.

هل هذا أنا بالفعل؟ "أنا يوسُف يا أبي!"

هل هذا أنا؟ صدّقني لا أعرف!

والحقّ أقول لك سيّدي، إنّني أخافُ أن أمشي بين الناس، كلّما صحوتُ ازدادَ يقيني أنّ مائي لا يمكن أن يكونَ هنا، وما من جواز سفر! لم أصِلْ إلى الحقيقة بعد، إذا كان النتاج نحن فما طبيعة الأنا المُنجِبة؟

وكتبتُ بهذا أشبه بقصيدةٍ مُقيّدة، لا أفهمُ في شعر التفعيلة، لكنّني أفهم أنني كلّ يوم أُركَل بأقدام المدن قاطبةً، فكان هذا النظم الركيك بعد ركلةٍ شلَّت ظهري:

ما يُدمي وما يسلبْ

وشرُّ الحبِّ ما ينهبْ

ويستقتل ويستقطبْ

جلودَ الآه والأدباغ

والصرخاتِ

والأوطانَ

والطعناتِ

والبستانْ

ويسجنُ قيسَ

ويلوكُ ليلى

مثلَ علّالٍ وسرابْ

يرجمُ السائس

يركلُ الخيل

يمضغُ الحقَّ والصوابْ

ويمضي كذبةً فَرِحة

على الأوتادِ

والأحقاد

والأجيال

والأمجادْ

ويأتي بعدَ سنيّ العمر

مثلَ فراشةِ الطينِ

يقدُّ الجرحَ والأوجاعْ

ونمشي خلفَه مرياعْ

ولا يُبحر ولا يُغني ولا يُسمن

من جوعِ بردى للسينِ

من الحبِّ ما يَقتل

من الحبِّ ما يعمي

ما يبكي

وما ينهبْ

وما يسلبْ

ويأخذُ بابلَ لمصرَ

تهزُّ العودَ والخصرَ

وفي الشامِ ترى يمناً

وفي صفْقة ترى بُصرى

وفي النيلِ والمغربْ

أماني القلبِ تستقطبْ

حجازاً للزمنِ المنجودْ

وشبهَ جزيرةٍ كانتْ

ما عاد شعرُها منشودْ

ولا العنقود... ولا الكبريتْ

ولا الخيمات ولا العفريت

تُخرجُنا من الممدود

وفاةٌ يبصقُ الطالع

يقدُّ لحمَنا المقدود

وعرَّافٌ من الزُهرة

ينبّؤنا بذي الطالع:

أنتم في سجنٍ أوسَطْ

ومن السجنِ ما يبكي

وما يَقتل وما يدمي

ويستعصي على الترحالْ

فلا السفر يواسينا

ولا الهجرة تأتينا

ونبقى مثل مرياعٍ

أسفارٌ على أسفار

إلى الشبّاك ليلَ نهار

صفعةُ الوحدة تنادينا

تُرشدنا وتُبكينا

تقولُ لطفلها المقتول:

من الوحدة ما يُبكي

ما يقتل وما يدمي

فعربٌ يقتلوا عرباً

حجازٌ يسفكُ اليمنَ

وبلادُ شامٍ ما ظلَّتْ

بتآزرٍ تحملُ الجفنَ

لبنانُ سافرَ دمشقَ

عمَّانُ يقطعُ العنقَ

وفلسطينيّ بلا أرضٍ

بلا هدبٍ بلا رسنٍ

بلا جملٍ ولا خيّال

بلا زادٍ ولا عرسالْ

بلادُ البَيْن تجمعُنا

وترمينا وتلعننا

والحكمُ يصدرُ في الترحالْ:

من الأزلِ إلى الأبد

أنتَ في سجنٍ أوسط

لا ماء ولا فيء

لا ظلّ ولا شيء

يفكُّ عنكمُ الغربال

ومن العروبة ما يُبكي

ما يقتل وما يدمي

يفضُّ الطُّهرَ والحلمَ

يدمِّر ذلك التمثال

المكتوب على أرضه

بلادُ العرب تجمعنا

وكانَ الناحتُ الحالِم

الجانِح إلى العالم

يتخيّل ويتجمّل

وكانَ الكاتبُ الطامِح

بتفعيلة بلا ملامح

يحاولُ جمعَ الأبحار

من الشعرِ ما يُبكي

ما يقتل وما يدمي

بلا وزنٍ بلا فعلٍ

بلا بحرٍ إلى الأمطار

جوازُ السفر يمنعُه

يحطِّمُه ويجحدُه

ومن المنعِ ما يُبكي

ما يقتل وما يدمي

منه ما يمسخُ الإنسان

يحوِّلُه إلى وحشٍ

إلى شبحٍ بلا ظلٍّ

يبقى يلعنُ الأوطان

والأحلامَ والسجّان

وكلامُ البرجِ يذكّرُه

أنتَ في سجنٍ أوسط

فلا تعبث

وابقَ أنتَ مُستعبَط

ومن الكذب ما يُبكي

ما يقتل وما يدمي

ويُنهي النظمَ والأوزان

بلا كفّة بلا ميزان

والسجينُ محكومٌ

لا يتعلّم الشعرَ

فلا شاعر ولا رسّام

ولا راقص ولا فنّان

ولا كاتب ولا بائع

ولا عامل ولا شحّاذ

ولا تاجر ولا نحّات

ولا نجّار ولا حدّاد

ولا حيوان ولا إنسان

يبقى إن يظلّ الحال

وهو في سجنٍ أوسط

فمن الحياة ما يُبكي

ما يقتل وما يدمي

وينهي الوزن بلا أوزان.

إذن! ماذا بعد؟ إلى أين؟ لا أعرف!

لكنّ السؤال ما يزالُ يطرقُ الجدران، ماذا لو كانت مصائرُنا في أيدينا؟

أتركُ كلَّ شيءٍ حيث يأتي المصير، وأودّعك. أسأل الله أن يكلأك برعايته.

المُخلص والمُحِب: يوسف شرقاوي.

٢٩ آب ٢٠١٨ _ ألمانيا، وحيدٌ في عالمٍ كبير لا يحتويني.

صديقي يوسف، منذ أن قرأتُ رسالتَك الأخيرة وأنا أفكّر في السؤال الذي طرحتَه عليّ، كم هو مُتعب!

أتسألني ماذا لو كانت مصائرُنا في أيدينا وأنتَ تعلم أنّني أتقطّع كلّ يوم بسكّين الحبيبة، تُمزّقُ خارطةَ عشقي بجفاها، فقط لأنّها تملكُ مصيرَنا بيديها؟

أسمعتَ يوماً بحقيقةٍ أتَتْ لوحدها دون أدنى جهد؟

أفي الأماكن غير المحسوبة في هذا العالم حقيقة؟ ما بالك يا ابن أمّي؟ لو أنّ الحقيقةَ تزورُ بقاعَ الأرض لخرَّ الفقرُ مغشياً عليه!

الفقرُ ليس سبباً لوجود الفقراء! نحنُ نحبُّ أنفسنا لذلك نعيش بفقر ونمقتُه يوميًّاً بلا أدنى مسؤوليّة بالإنسانيّة التي نحملها داخلنا.

إن كنتَ طيباً فقيراً فذلك نتيجةٌ وسببٌ في آنٍ معاً، وإن كنتَ شريراً فقيراً... انتظر، لا يوجد شريرٌ فقير!

الشرير ليس بإنسان! من لا يحملُ صفات الإنسانيّة لا يملكُ قلباً، ومن لا يملكُ قلباً لا يخاف، ومن لا يخاف هو شرير!

أريدُ أن أخبرَكَ أمراً قد عزمتُ عليه أيضاً: هذا آخرُ ما سأنشرُه يا عزيزَ القلب، فالجسدُ المُتعب لم يعُدْ يحتملُ كلماتٍ أخرى.

كلُّ حرفٍ أكتبه هو عبارة عن نصلٍ يخرجُ من القلب ويستقرُّ بالروح، احسبْ إذن على عددِ ما كتبتُ لك، لها، للغائبة الحاضرة، للوطن، للغربة، للأهل، للأصدقاء، لفلسطين، للفقراء ولنفسي... أنا مطعون!

سأدخلُ غرفةَ التحقيق معك أيضاً، سأكونُ ملاكَكَ الحارس أوَّلاً، من ثمّ أكونُ المجرمَ الهاربَ من ذاته إلى الناس يا صديقي.

قاومْ أيّها الكهل الشّاب

ابقَ في الكهفِ المُظلم

سنأتي جميعاً حاملين لكَ النور

ندخلُ من ثُقبِ الفرح

نطردُ الحزنَ ونُحرِّر كلماتك

قاوِمْ أيّها الكهل الشّاب

فبينكَ وبين الظّلم حكايةُ بلد

سنطبطبُ على كتفيكَ ونداوي جراحَك

سنتجرَّعُ مصلَ الخلاص سويَّاً

كلُّنا مُستهدفون!

يعودُ الحزنُ من تحتِ الرّماد كلّما أطفأنا نارَ الشوق

ينطقُ القاضي بالحكمِ علينا

نُطردُ خارجَ الحدود ونُجرَّدُ من قلوبنا، أرواحنا وأقلامنا...

قاوِمْ أيّها الكهل الشّاب فأنتَ مستهدفٌ في حلمك

والحلمُ ليس كما تشتهي!

إنّه محاطٌ بالخوف ولا يُنبِت إلّا وردةَ فرحٍ عمرها قصير، اعتنِ بها؛ فهي لك.

ما أطيبك يا عزيز وما أبشع الظلم ومومس الفرح!

الحياةُ ساديّة، هذا ما اتّفقنا عليه مسبقاً، فلا تحاول استرضاءَ شهوتها لوهلة لأنّها ستعتادُ ضربَك بالسّياط وتمارسُ بكَ شتّى أنواع العذاب.

الحياةُ ليست كما نشتهي! متمسّكون بخيال (لو) وننسى أنّ القطارَ ماضٍ، المحطّات لن يبقى بها أحد، حتّى المتسوّلون سيغادرون الأرصفة قريباً نحوَ الأشجار والأنهار والموائد بعد أن يضعوا رؤوسَهم على الأرض القاسية.

سأكون المحقّق -الذي حلمتُ أن أكونَه في يومٍ من الأيّام- وأسمعُ أحلامَك وأناقشها مع نفسي وسأكتب عنك.

مجموعةُ الكتب التي أسلفتَ عنها يا عزيز هي حلمي الصغير أيضاً، لكن كانت لقمةُ العيش أهمَّ بكثير! كم تخيّلتها تضمُّ ديوانَ قيس ابن الملوّح ومجموعة

المُخلص محمّد الماغوط وما عزفه نزار قبّاني على مسامعنا، لكن حالَتِ الحياةُ بيني وبينها وأتعبَتِ القراءةُ من وراء الشاشة عينيّ أيضاً.

استطعتُ هنا أن أقتني بعضَ الكتب رغم أنّها باهظة الثمن لكن هذا لا يمنع، أتقاسمُ المدخول أنا وهي. تعلم أنّني أسكن لوحدي ولا أمانع أن أتقاسمَ الطعامَ أنا والكتاب وأشعر بقليلٍ من السعادة التي لا تنتهي كلّما قرأتُ أو نظرتُ إلى المكتبة الفقيرة.

الأدبُ للأسف أصبح فقيراً جداً والمسرح نادراً أكثر، فما بالك يا عزيز بعملٍ مسرحيّ أدبيّ؟ سيتعبُ كثيراً حتّى يجدَ من يلتهمه بشراهة.

قرأتُ في الأمس مقالاً لأمير الشيخ بعنوان "الحرب والأدب" يتحدّث به عن ارتباط الثورات الثقافيّة بالحروب والنقلات النوعيّة وصلة الوصل بينهما،

وهو من أجمل المقالات التي قرأتها بهذا الخصوص، فالانتفاضات الثقافيّة وازدهار الدول لم تأتي -كما نعلم من التاريخ- إلّا مع الحروب، كالنقلة النوعيّة في الأدب العربيّ في أيّام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام، والأعمالُ العربيّة تُتَرجم إلى عدّة لغات إلى الآن، وفي بداية القرن التاسع عشر بدأَتْ ترجمة الأعمال الغربيّة، كانَ أجدادُنا يعيشون دائماً في حروب لكن أعمالهم وإلى الآن تُقدَّس.

وتحدَّثَ أمير أيضاً عن الثورة الفرنسيّة وازدهار فرنسا -التي كانت تشهد في القرن السّابع عشر عصراً ذهبيًّاً بالنسبة للأدب الفرنسيّ- والثورة البلشفيّة وحتّى عمالقة فلسطين ولدوا من رحم الحرب.

الحربُ والأدب بينهما علاقةٌ وطيدة يا ابن أمّي، حتّى في أعمال الأعمى هوميروس كان الأدبُ يتجلّى في الحرب كالإلياذة والأوديسة.

وتحدّث أمير أيضاً عن اندثار الأدب للأسف في الحرب الأخيرة التي عاشتها بلادنا وعن الكتب التي تؤلم القلب -إلّا ما رحم ربّي منها- ألا ليتَ الحرب والموت والخراب يلقّنوننا درساً لكي نصعدَ ببلدنا إلى الازدهار؛

فالقراءة والكتابة والثقافة بشكلٍ عام هي من الأساسيّات لإنتاج مجتمعٍ قويّ ومُتحضّر، فالمجتمع القارئ هو مجتمعٌ يسعى للكمال!

تذكَّرْتُ قطعةً كتبتها منذ شهرٍ تقريباً بعنوان اقرأ، كانت أمنيةً تطوف بالروح منذ زمن:

اقرأ

"تمنَّيتُ أن يأتي من رحمِ الحرب جيلٌ يُنظِّف الغبارَ عن ظهر الكتب في المكتبات، لا أن يزيدَ العفنَ عفناً، حلمتُ بجيلٍ يقرأ، وجدتُ الكلّ يكتب!"

من يريد أن يصبحَ كاتباً لا تكفيه الموهبة فقط، يجب أن يتحمَّلَ النقدَ ويأخذَه درساً مجانيَّاً ليتعلّم ويقفز بموهبته للأعالي، لا أخفيك يا ابن أمّي، عندما كنتُ أكتب لنفسي ولا أراعي من القواعدِ شيئاً كان قلبي كقلبِ أيّ إنسانٍ عاديّ، وعندما كتبتُ للناس وجدتها مسؤوليةً كبيرة، وأقسم أنّ الدمعَ يهطل بعد كلِّ قطعةٍ أكتبها وأنتَ من يعلم هذا جيداً، لا أدري ماذا يوجد في أيسر الصدر! أهو قلبٌ أم طفلٌ يبكي خوفاً من عقاب والده!

ألهذه الدرجة الكلماتُ مؤلمة؟ مع كلِّ حرفٍ أشعر بألم المخاض!
هل تولد الكلمات ولادةً يا عزيز؟
سأنتظرها رغم الصراخ في رأسي، سأنتظرها بفارغ الصبر لأنّني أخاف على فلذة القلب من التشوّه.
ما أجمل ليالي المخيّم يا يوسف! أنا من تراب الميدان عُجنت، لا يُبعدني عن المخيّم سوى شارعٍ قصير. ولدتني أمّي في غرفةٍ صغيرة على يد قابلةٍ قانونيّة تُدعى ليلى، وعند كلّ موقفٍ مُضحك في الصّغر أصدح: ماذا فعلتِ يا ليلى في تلك اللّيلة؟ لأسمعَ ضحكةَ أمّي تصعد للسّماء العجماء عابرةً من رقيع مروراً بالقيدوم فالماروم وأرفلون ثمّ هيفوف فالعروس.
صباح يوم الثلاثاء الموافق لليلة القدر، الساعة السابعة صباحاً في حارةٍ صغيرة تُدعى حارة الجورة في جنوب الميدان -بوّابة الميدان- خُلقت. وللمصادفة، تلك الغرفة الصغيرة أصبحَتْ غرفتي التي هي بمساحة العالم كلّه.
في عمر السنة انتقلَ أهلي لمنزلٍ آخر لا يبعد سوى بضع خطوات عن المنزل الأوّل، في عمر الثانية عشر ابتاعوا المنزلَ العربيّ الأوّل واستوليتُ على غرفتي الصغيرة في الطابق الثاني، في ذلك العمر بدأَتْ رحلةُ العمل التي لم تكن شاقّة بنظر طفلٍ صغير، سارَتِ الحياةُ كالساعة الرمليّة، لا أدري ماذا حصل، كانتِ الأيّام تركض بجانبنا حتّى اللّحظة التي ودَّعتُ فيها أعزَّ أصدقائي وداعاً لا يليق بستِّ سنوات وربّما أكثر! كم أشتهي أن يعودَ بي الزمنُ لأحتضنَهم بما يكفي لعشر سنين يا عزيز!

سافرتُ إلى لبنان وعشتُ بها ثلاث سنوات ولم أستطع أن أكمل دراستي الجامعيّة في قسم الحقوق كما أسلفتُ لك، كنتُ أحلم أن أكون محقّقاً، لكن وضعتني الحياة في مسرح جريمتها وإلى الآن لم أستطع أن أكتشفَ من المجرم ومن الضحيّة! ومن ثمّ قادني قاربُ الحياة إلى ألمانيا، أحمدُ الله أنّني سعيدٌ هنا نوعاً ما، وأنّني استطعتُ أن أحقّق بعضاً من أحلامي. حلم الطفولة كان أن أزورَ هذه البلاد، فقد كان خالي يتحدّث عنها وعن جمالها كثيراً وكيف يستطيع المرءُ أن يعيشَ فيها كيفما أراد، فهو مغتربٌ منذ أربعين سنة بعد نشوب الحرب الأهليّة في لبنان، هل أخبرتُكَ أن أمّي من جذورٍ لبنانيّة؟

كنتُ أحلم بالطيران وكبُرَ الحلم معي لحظةً بلحظة، كم تمنَّيتُ أن أطيرَ على تَؤُدةٍ فوق جميع البلاد وأعودَ لحضنِ دمشق! ألتحف حارةَ القيمريّة وأضع رأسي على حارةِ القشلة وأغلق على نفسي باب شرقي وأستمتع بقصص حكواتي النّوفرة!

لكنّ الطيران كان مُتعباً للغاية؛ فقد نسيتُ أن أتعلّم الهبوط يا ابن أمّي! وها أنا أحلّق منذ ستّ سنوات ولا أجد سبيلَ العودة للحارة القديمة. أشتاقُ للشتاء في أحضانها ولحنينها إليّ؛ فقد أرهقني ضربُ أعاصير الغربة لي بحنقٍ وعنف.

آه يا صديقي كم هي مؤلمة نوبات الذاكرة القويّة حين تصفعُنا آخرَ كلِّ ليل! تعرَّفتُ على فتاةٍ كانت بالنسبة لي وطناً بعيداً عن الأرض الأولى، لكن حتّى الوطن هجرني في الغربة الحمقاء، نضَّحَتْ قلبي بالفراق فوقعَ اليأسُ في المصيدة وقيَّدَ الفؤاد.

فُنيَتِ الكبرياءُ في الحبّ يا ابن أمّي، لكنّهم لم يدركوا الأمرَ بعد.

وعلى هذا أصبحتُ الملوَّح في العشق وكتبتُ:

ألم أقل لكِ أنّني العاشق السيّئ الحظ؟
طارَ الحمامُ من يديّ
مزَّقَتْني كلُّ النساء
طُعنتُ من ألفِ امرأة
بُحتُ للغيوم: يابسةٌ ورقة الشّجر، يا سماء!
خُذي كلَّ الدموع
اسقي الجذورَ عنّي منّي
ذلك الطائر يُغنّي على الأغصان العطشَى:
عودي يا غيمةً أحبَّتِ السفر
عودي يا ربيعاً في صيفِ العمر
يا غزالةً وسطَ الوحوش، تُكشّر عن أنيابها خشيةَ الهجوم المباغت، فتقتلُ أسداً وقعَتْ مخالبَه في الالتحام الأخير وسقطَتْ أسنانُه على الضفّة الأخرى من نهر المآسي.
اختارَتِ الحامي لتغدرَه، الصدرَ الدافئ لتطعنَه، القلبَ الرّقيق لتدهسَه، الروحَ العطشى لتعذّبها وترمي ماءَ الحياة أمامها بعد أن ربطتَها بجذعها.
يا غيوم، يابسةٌ ورقة الشجر!
لِمَ كلّ هذه القسوة منكِ؟
يا أرض! ضاع الحُنُوّ، لم يبقَ شيءٌ يُثلِجُ في الهواء
هناك أختنقُ بكلماتي

وهنا يكونُ الحرف نصلاً، يا للفاجعة!

هذا ما جناه القلمُ تجديداً في الشغف بعدَ الاتّكاء على جبلٍ متصدّع.

أنا الذي تهتُ منّي عند الوداع الأخير في صَحْرائنا، فتقمَّصَتْ صخرةٌ هيئتي. لن أبقى على العهد ما دمتِ لستِ على الوعد.

سأتّكِئُ على اللاأحد في السقوط، سأشردُ في اللاشيء، أغوص في عمق الظلام وأتفتّت في قاع الفقد.

نجاتي هي السقوط بين يدَي الغائب، موتي هو البقاء بين يدَي الغياب، وتعلُّقي بالذكريات سيذرني بين الغيابَيْن!

ويتنبّه اللاوعي للألم؛ فالقلبُ رقيقٌ حدَّ السّيف، وجعُ الذكريات متعبٌ حدَّ الحب. لكنّي ولو بعد حين سأعيشُ يوماً رجوليَّاً -بلا منازع- على عتبةِ الألم بخيوط الحبّ المُتشابكة.

القوّة ثمّ القوّة! زمنُ لا رجوعي عن الرجوع ولا وجودي بين يدَيها مسلوب الأمنيات، مُهمَّش الغياب، محطَّم الفؤاد!

قلتُ لها ذات يوم أنّها قطعةُ الخشب التي تطفو وتُنقذني من الغرق، لم أكن أعلم أنّها بقيَّةٌ من حُطامِ سفينةٍ غارقة، بدل أن تُنقذَني أغرقتني! وعلى الرغم من البعد الذي اختارَتْه، القوّة التي تتظاهر بها أمامهم، ودفعها بي ضحيَّةً -لا حول لي ولا قوة- قرباناً للحبّ، ستلعن الأبجديّة يوماً ما لأنّها لن تنصفَ ضعفَها بوصفٍ مناسبٍ لرثائي،

ستذرفُ الدمَ من عينيها وينطفئ قلبها حزناً. لن أعودَ لألقي قميصي على جسدها الخائن، سأبقى هوساً تتحدّث ليلاً ونهاراً عنه.

فشرُّ الحبّ ما يُبكي

ما يكسر ولا يُشفي

يأخذُنا إلى المجهول

يصفعُنا

يقلِّبُنا

ويُدمينا

يغيّر وجهة السفينة

يثقبُ شراعَ القلب

ويسلبنا منّا

من الحبّ ما يُبكي

يترجّل على الأطياب

يسحبُنا إلى الوادي

ويتركُنا في اللّيل مع الذئاب

تئنُّ الأرواح من ضربات الذكرى

وتسري الدموعُ كالدماء

منْ أنتَ يا حب حتّى تعبث بنا وتغيّر وجهتَنا وتقلب السفينة وتثقب الشّراع؟

سأخرجُ من البحر باتّجاه الفضاء وأغوصُ في الظلام.

ستخضعُ لي النجمة وأقبّل القمر، أتّكئ على الشمس وأصنع من خيوطها حلماً،

أحتضنُ المجرّات وأنام على غيمة.

أسأل الله أن يكلأك يا صديقي برعايته.

سأبقى المُخلص لك دائماً: محمد المحمد.

الخاتمة

محمد: عادَتِ الأيادي إلى الميناء مُقطَّعة.

يوسف: لا تعود الأيادي مُقطَّعة. صاحباتُها لا يحملنَ سكاكينهنّ ولم يشاهدن الحُسنَ يوماً، ما رأَين إلّا نصيبهنّ من الحياة، شقاءً طويلاً، وقد خُلِقن مبتورات الأيدي، فكيف تقطَّعَت؟

محمد: بعدَ الوداع، حملتُ الأوجاعَ في كلماتي، شاهَدَ الجمهورُ الحزنَ بأحرفٍ مرصوفة، كسَرْتُ القلمَ الذي نادى في الفضاء: ههنا الوجع. فقطعتُ يديّ بعدما سرقَتِ المياهُ وجهَ النرجسيّة.

يوسف: ناشَدَ جلجامش نبتَتَه، فهل تستعذبُ الألمَ كنبتة؟ لا أنكيدو هذا اليوم. الماءُ ماء، الشرُّ شر، الخيرُ خير، والحبُّ حب.

فلِمَ يقضي الصالحُ نحبَه بسكّين الطالح؟ وهل البقاءُ للمُتألِّم؟ هل وصلَتْ ساديّة الحياة أن تُخلِّدَ الألمَ حتّى النهاية؟ أيُّ غضبٍ وضنك؟ أيّة رعشةٍ تسري وتقتل كلَّ شيء؟ وأين البكاء؟ أين البكاء؟ أين البكاء؟

حتّى الماء ينفد، استبدِل الإيثارَ بالأثرة ولو بضآلة كي نحيا، استبدله، عُدْ مثلَ سنبلةٍ تكتب السهول بألوانها. بحقّ الشقاء! كفى يا ابن أمّي.

محمد: صرخْتُ بأعلى صوت: تباً يا نبتة الخلود، ماذا فعلْتِ؟ الحبُّ مازوخيٌّ يا ابن أمّي، السيفُ يخترقُ الجمجمة، انكسرَتِ السنبلة، العاصفةُ قادمةٌ من الشرق منذ ديسمبر تفتكُ بي.

كلُّ شيءٍ يقول لابن أمّك كفى!

القلبُ رضيعٌ يبكي في اللّيل على ضوء القمر.

يوسف: اصرَخْ واندب ثمّ انسَ بعدها.

كلُّنا نصرخ، حتّى اللّيل، والقمرُ المنطفئ الدامي الحقير، كلُّنا نصرخ ونُهلِّل ونرثي أنفسنا أحياء. السنبلة لا تذبل، لا تذبل، وإن ذبلَتْ، عليها أن تسقي نفسها وترتوي، وتشبع، وتشبع، وتحيا كسالف عهدها.

محمد: سينجلي كلُّ شيء عمّا قريب، سيعود الحبّ كالعنقاء من رحمِ الحزن يا عزيز.

يوسف: عليه أن يفعل، وإن لم يقوَ، فلينتحب وحده، تفرَّج عليه، لا تأبه برماده وسهامه، ابتعد... فقط ابتعد.

محمد: سأبتعد، خلفَ قضبان السجن أعيشُ بعيداً عنه، وأحمي نفسي من سهامه المُبعثرة، فالعدوّ يترصّد خلفَ الباب، والحبُّ عميقٌ جداً، لا أملكُ المعجزات.

يوسف: أين تنامُ العصافير حينَ تسقطُ أوراق الخريف؟

محمد: على الأرض الأولى، فوقَ الطين الذي خُلِق منه، على البيت الأخير.

يوسف: هل تسامحُه العصافيرُ على الحدِّ الفاصل، أم تنتقم؟

محمد: لن تنتقم، ستُحلِّق عالياً، بعيداً عن المدى المجدي لرصاصه.

يوسف: "المسامحة هي الانتقام".

محمد: سننتقمُ يوماً ما، سنسامح.

يوسف: سنسامحُ يوماً ما، سننتقم.

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع